تموز

منال عبد الحميد









@escatopia

تموز

تأليف

منال عبد الحميد



Escatopia Publishing



المدير التنفيذي

أحمد صلاح المهدي

رئيس التحرير

معتز حسانين

الكتاب: تـمـوز

المؤلف: منال عبد الحميد

تدقيق لغوي: أحمد صلاح المهدي

الغلاف: أحمد صلاح المهدي

تاريخ: ٢٠١٧/٩/١

Escatopia Publishing

+2 01143503489

www.escatopia.com

contact@escatopia.com

(١)

هبط الجبل بحذر وترقب شديد لما حوله؛ لم يكن خائفًا أبدا فهو لا يعرف الخوف، لم يجرب الخوف أبدًا، لكنه جرب الحذر والاستعداد للأسوأ القادم، كل قادم بالنسبة له أسوأ، فقد عاش قرونًا تحت التراب!

فرد جسمه الرياضي الممشوق، وعب من الهواء المحيط نفسا رطيبا عميقا، كان الهواء حوله في غاية النظافة والبرودة! إنه الشتاء .. موسم الموت! لقد ضُحي به ذات شتاء وها هو الآن يعود ذات شتاء آخر، لكن ما أبعد الشتاءين!

سمع ضجة معدنية غريبة بالقرب منه فأضطرب باطنه، إنه يسمع ضجة غريبة ذات رنين كريه منذ أن عاد إلي الوعي! ولسوء الحظ فإنها مشابهة وبدرجة عظيمة لتلك الضجة التي لا زال يذكرها حين حدث هذا الأمر الفظيع؛ حين هوي النصل المسنون فاصلًا رأسه الجميل عن جسده!

***

أيقظوه ذات صباح في المعبد؛ منذ متى حدث هذا؟! قرن؟ قرنين؟ ألف عام ربما؟ إنه لا يتذكر تحديدا لكنه يذكر جيدا كم كان خائفًا ومرعوبًا! أوقفوه وسط الأزهار البديعة وحمموه بعبيرها المذاب في الزيت، صبوا الزيت فوق رأسه بغزارة ثم مسحوا جسده المفتول به، قالت له "فينوس" وهي ترمقه بولع وهيام:

"من أجلي يا عشيقي المحبب، من أجل حياة طويلة وعمر مديد لي!"

الخائنة الغادرة الكاذبة؛ فور موته عرفت رجلًا آخر، وما لبثت أن جمعت العشاق حولها!

"فينوس"، "أفروديت"، "عشتار"، عليك اللعنة أي كان الاسم الذي تختارينه لنفسك كل مرة!

أخذ نفسا عميقا؛ لقد عاد إليهم على كل حال وسيفه في يده فقد دفنوه معه! إنه نفس السيف الذي جزوا به رقبته، لكنهم كانوا كرماء فتركوه له ليظهر الأمر أنه تضحية بنفسه لا تضحية منهم هم به، كم هم مخادعين!

مرت بقربه قطعة معدنية لها عجلات أسفلها تجري بسرعة هائلة فأجفل ودق قلبه مسرعا؛ يا مجمع الآلهة الثمانية والستين! أي إله شر يسير على عجلات هذا؟!

وجف قلبه واضطربت دقاته فتوقف قليلا ليلتقط أنفاسه الهاربة، لحقت به برودة مميتة فشعر بالصقيع يلفه! أي زمان جدب بارد هذا الذي بُعث فيه! لكنه نفذ من سلطان الموت، أيخيفه سلطان البرد بعد كل هذا!

وقف مكانه متشممًا الهواء، ثم ما لبث أن شعر بالأمن، لم يمر إله حرب صاخب آخر يسير على عجلات، والمكان من حوله هادئ وخاو تماما، توقف ليفرد جسده، أخيرا سيستنشق نفسه بعمق!

توقف وغرس قدميه في التربة الصخرية أسفله، ضرب الحصى أعقاب قدميه البارزين لكنه لم يشعر بأي ألم ثانية، مد ذراعيه وفردهما على جانبي جذعه، أخذ نفسًا عميقًا وفرد جسده أكثر، دخل الهواء إلى رئتيه فانتفختا ثم بدأ صدره يتمدد!

سالت ضلوعه سائبة إلى جانبيه، وتمدد حجم جذعه وبدأ يتضاعف، استطالت ساقيه وتضخم حجم عضلاته وتضاعف سمك ذراعيه، نما طولا وعرضا وارتفاعا، سحب المزيد من الهواء وجره إلي داخل صدره حيث استحوذت عليه رئتاه اللتين صارتا في حجم صخرة كبيرة، نفذ الهواء وتخلل عظامه!

انتهي من نموه وصار الآن حرا طليقا متحررا من قيود التضحية والموت، لن يجزوا رقبته بالسكين مرة أخرى!

صرخ أخيرًا مناديًا:

"حدد[1]، حدد، إني عدت إليك!"

ترددت صرختـه المرعبة في جوف الليل، لم يسمع الناس صوته مناديا بل سمعوا قصف هائل وعواء ريح مخيف، صفرت الرياح الهائلة وضربت الجدران والنوافذ والأبواب وحطمت الجدران، لم يميز الناس في الرياح العاتية سوي صوت عواء مخيف لكن هناك وعلى بعد فراسخ كثيرة ـ مسافة لا تعد خطيها ولا تحصي ـ صحت حسناء جميلة في فراشها وفتحت عينيها بغتة، سمرها الذعر في فراشها بينما كان شعرها الطويل ـ الذي يحاكي لونه لون شعاع الشمس في جبروته وعنفوانه ـ مفروش كثوب من ورود صفراء حولها، تسمعت للريح الضاربة الآتية من بعيد للحظة ثم تنهدت بحرقة، تقلب رجل مفتول العضلات إلي جوارها في الفراش ورقد على جنبه مواجها لها، سألها برقة والنعاس لا زال يطغي على أحاسيسه:

"ما الذي أيقظك يا عزيزتي؟"

تنهدت مجددًا وهتفت من صدر مكلوم غاضب حاقد:

"إنه هو!

---

[1] حدد: إله العواصف والأمطار في سوريا القديمة

رفع جسده وجلس نصف جلسة إلى جوارها وحدق فيها بذعر؛ سألها أخيرًا متمنيًا أن يكون قد أخطأ السمع أو أخطأ الفهم:

"من؟!"

أغمضت عيناها وضغطت على جفونها بقوة وردت أخيرًا:

"لقد عاد هو .. "تموز" .. غادر جدثه!"

وضع كفيه ليمنع نفسه من الصراخ بينما اشتدت قوة الريح وعواءها في الخارج!

(٢)

كانت تلك نهايات الشتاء التي يمارس فيها عنفوانه مذكرا خلفه الآتي خلفه متلصصًا ـ الربيع ـ أنه لا زال هنا، ولا زال قادرًا على أن يُدثر الكون في عباءته السوداء الباردة، ويزحف حتى عظامه المخلخلة المرتعشة. لكن الربيع الماكر كان يدق الأبواب رغم ذلك بحذر ودهاء، تسلل حتى جذور النباتات الميتة واختبأ هناك، أحيا الأزهار ونفخ حياةً في الأعشاب، وقص البرودة من أطراف الأوراق وأستبدلها ببوادر خُضْرةٍ تبدو يانعة طرية. وضع الأطفال الفرحون زهورهم فوق نوافذهم في انتظار مرور الربيع بعصاته ليلمسها ويحييها، وتهيأت الفاتنة (دمشق) لتمارس سحرها القديم المتجدد، دمشق التي عشقها الجمال فأستوطن أديمها وأقسم على ألا يفارقها .. إلا بالموت!

اهتزت مدينة العشق الأبدي فَرِحة، منتظرة هطول الخضرة وتطاير الزنابق فوقها، لكن الصغير "إياد" ذو العينان السوداوان اللامعتان، صحا صباحًا ليجد وردته ميتة! كان قد غرس وردة دمشقية في أصيص صغير أهداه إليه والده، ووضعه على حرف النافذة ليتابع نمو وردته الأولي المُفعم بالدهشة وانتظار المجهول السعيد. نمت البذرة وشققت الطين حولها وبدأت ترفع رأسها

منذرة العالم بالهول إن هو لم يدعها تواصل مسيرها إلى أعلى، ويبدو أن العالم خشي تهديد الوردة الصادحة كالفراشة فأفسح لها الطين مجالًا، وترك عنقها يشرئب ناظرًا إلي أعلى بدهشة قائلًا: مرحبا أيها العالم الشقي!

لكن الصغير أستيقظ صباح يوم الزوبعة الباردة ليجد زهرته ميتة منكسة الرأس مستسلمة للموت! صرخ وهو يتأمل العنق الساقط المتهاوي وحمل الأصيص باكيًا إلى أبيه، كانت ثمة بلورات صغيرة من الثلج تخنق البراعم وتكتم أنفاسها مانعة عنها الهواء والحياة، صرخ "إياد" بذعر وهو يعرض جثة وردته التي لم تلحق أن تخرج إلى الحياة:

"وردتي ماتت .. وردتي ماتت!"

انخرط في البكاء على الفور، فداعبه الأب جابرًا خاطره بأن وعده بكومةٍ من الورد الجوري له اليوم من محل الأزهار القريب، لكن الطفل لم يكن يريد وردة جاهزة كان يريد واحدة يقطفها من صنع يده، يسهر عليها كما تسهر أمه على أخته الصغيرة، التي كانت لحسن الحظ تشبه الجورية تمام الشبه!

رمق الأب بلورات الثلج بدهشة واستغراب حقيقي، وعلى امتداد بيوت الشارع كانت كل البراعم قد صحت صباحا ميتة، غطتها الثلوج ببلوراتها ودفنت فرحتها تحت ثقلها السمج! كان هذا حدثا

طبيعيا غير معروف له سابقة، لكن المناخ سيء حقا ويسوء عاما بعد عام!

فكرة طيبة جديرة باقتلاع المخاوف من الأنفس الخائفة؛ لكن ثمة شخص بالقرب يعرف أن كل هذه الادعاءات ليست صحيحة أبدًا، فالمناخ بريء من دم كل تلك الزهور والنباتات النافقة هذا الصباح المقرور البارد، فهناك شيء آخر مسئول عن كل هذه المذبحة!

***

جلس في النافذة يرمق المدينة البيضاء بسعادة حقيقة؛ كانت حركة المواصلات لا تهدا وآلهة الشر المقرقرة تسير في كل مكان على عجلات، ما أسعده حقا هو أن الناس جميعًا كانوا يزفرون بردًا ويلتفون في ثياب ثقيلة!

كان عاريا لكن أحدا لم يكن يري عريه، فقط كانوا يرون وجها برونزيًا ذا ملامح صلبة، يرمقهم من نافذة بيت هائل مهجور تماما، معبد قديم من معابده التي تحولت عبر السنيين إلى شيء ثم شيء ثم شيء ثالث، دون أن تصل إلى كينونة محددة، وهُجر في النهاية متروكا وحده ككومة حزن جافة على طريق، لم يعد

أحد يعبده أو يقدم إليه قربانا الآن، مع أنه هو الذي يسفك دمه من أجل أن يأتيهم بالربيع!

حسنا، حسنا جدًا، تطلع إلى الشوارع المكللة بالثلج بسعادة حقيقية؛ كم تعلم أن يكون شريرا متوحشا تحت التراب! تساقط سائل لزج من فوقه فرفع رأسه الضخم ناظرا، كان سائلًا يتقاطر منه نقاط قليلة من سقف مرتفع يعلوه، سائل لزج ذو رائحة صدئة مميزة!

دم! قربان دم يسفك من أجله الآن! دهش وأصابه الذهول، سمع صوت عراك وشجار وأصوات تتلاحي بلغة غريبة لا يفهمها، نفس تلك اللغة التي يسمع الناس يتحدثون بها في كل مكان ولا يفهم منها حرفا، هرع إلى سطح المعبد ليجد رجلين هناك! رجلين يرتديان ثيابا غريبة وأحدهما واقف بسلاح يقطر دم في يده، وآخر ممدد عند قدميه مذبوحا مشقوق العنق، ووجهه آخذ في التحول إلى الشحوب البارد لميت تم نحره نحرا!

ابتسم سعيدا؛ نعم تلك هي الطريقة الصحيحة، النحر! كانوا ينحرون له القرابين طوال آلاف السنيين لينالوا رضاه، مقابل أن يترك الربيع يفرش ثوبه المرقش بالزهور والعشب النضر عليهم، لكن روحه توقفت عن رشف الدم المراق من ذبائحهم منذ قرون طويلة! صاروا يذبحون له أغناما وماشية بل وخنازير نجسة، أولئك الحمقى البخلاء! هل نفق البشر من عندهم؟ هل انقرضت العذارى، وقل الشبان مفتولي العضلات الذين ترويه

دمائهم وتجدد روحه وتمنحه حياة أخري تحت التراب؟ لكن يبدو أن هناك لا يزال عباد مخلصين له؛ مثل ذلك الرجل الواقف بسلاحه المخضب بدم الأضحية؛ الأضحية البشرية!

أظهر "تموز" نفسه للرجل المرتعب الذي تعلو أنفاسه وتهبط كاشفة عن مدي التوتر والعبء النفسي الذي يعانيه، صدم القاتل حينما وجد ذلك الجرم البشري الهائل العاري يتجسد لعينيه، حدق بفزع وسمع صوتا عميقا مخيفا يقول له برضا:

"إنني أتقبل قربانك؛ أتقبله وأمنحك ربيعا دائم الخضرة!"

فزع الرجل وتجمد مكانه للحظة، نظر إلى ذلك الجرم وحاول أن يطلق صرخة لكنه فشل في ذلك، أربد وجهه من فرط الذعر، ثم اندفع هابطا تاركا سطح المعبد المهجور ملقيا سكينه بجوار القتيل المسجى تحت قدمي "تموز"، وفر هاربا لا يلوي على شيء؛ لم يهتم "تموز" به بل تحول لينظر إلى الجثة النازفة بلا توقف وابتسم وهو ينحني عليها:

"قربان مقبول أيها المجنون، ولعل قرابين أخري تلحق به عما قريب!"

***

متوترة كانت تدور في كل مكان، بثوب كاشف أنيق وشعر مختل النظام، وسيجارة في يدها تطلق الأدخنة بلا توقف، تدور وتدور حول نفسها وحول قطع الأثاث وحول زوجها العاشق القديم:

"لا تكترثِ لعله حلم؛ إنه ميت منذ ألفي عام ولن ينهض ثانية!"

صرخت فيه وقد أحمر وجهها غضبًا وغيظا:

"أيها الأحمق، إنه قادر على العودة، ألا تعرف ذلك؟!"

بالطبع كان يعرف ذلك؛ كان يعرف أن "تموز" قد يعود في أي لحظة، رغم أنه هو الذي شق رقبته وفصلها عن جسده منذ قرون طويلة؛ لكنه لم يتوقع أن يتحقق ذلك الكابوس!

"عشيقتي الأبدية، ألا أبدو حماية كافية لكِ، أنا موجود أمامك ولن يقدر على الوصول إليكِ!"

ضحكت وتحولت إليه ورفعت يديها ليراها، رأي تجعيدة واضحة غريبة على يدها البضة الناعمة الملساء! متى بدأ جلدها الجميل يتجعد ؟! نظر إلى التجعيدة ثانية بدهشة وصمت ثم تقدم التفسير الذي يريحه:

" إنها علامات الشيخوخة، افركيها بالكريم!"

وثبت لتمسك رقبته وتضغط عليها بغل، فقد بلغ مدي تحمل أعصابها المضطربة نهايته، دفعته إلى الخلف وهي ممسكة بعنقه فأخذها وأرتد ليسقط بعنف فوق مقعد وثير وهي فوقه:

"أي شيخوخة؟ أي شيخوخة يا أحمق؟**!** لقد تشقق جلدي من صرختـه حين نـهض مجددًا، ألا تدرك ما الذي سيفعله بنا إن وصل إلينا**!**"

لم يفكر "حدد" في إمكانية وصول خصمه القديم إليه وإلى عشيقته؛ عشيقته التي تزوج بها مرارًا وعلى كافة الطقوس المتبعة في كل عصر وفي كل دين، لكنها بقيت أبديا عشيقة، زوجة غير شرعية، ملعونة هي وملعون هو معها:

"لن يصل إلينا، سنغادر دمشق**!**"

نعم، كانت تلك الفكرة البسيطة السهلة**!** نفثت غضبها عليه بعد أن تركت رقبته وحررتها من ضغطها الهائل وقالت نافية بعزم:

"لا أستطيع مغادرة دمشق؛ لا يمكنني البقاء بعيدا عن مقبرتي القديمة**!**"

"سنأخذ الجسد ونتوارى .."

كاد يقترح لكنها لم تمنحه الفرصة الكافية ليفعل:

" لا، لا، سنبقى هنا ونواجهه، سأذبحه من جديد إن حاول إيذائي**!**"

شعر في كلماتها بنبرة الغرور والأنانية القديمة:

" إن حاول إيذائك؟ وماذا لو حاول إيذائي أنا؟**!**"

نظرت إليه بسخرية وقالت هازئة وجادة في نفس الوقت:

" ذلك شأنك أنت، يا .. حدد**!"**

تركته أخيرا وذهبت إلي غرفتها، تنهد وفتح التليفزيون اللعين؛ الصندوق الذي لا يكف عن الثرثرة، ولا تكف هي عن متابعته وتصديع رأسه به، كانت النشرات المتوالية لا حديث لها إلا عن شيء واحد؛ الشتاء الذي عاد بعد أن كاد يتلاشي ويحل محله الربيع، والهبوط الرهيب الذي حدث في درجات الحرارة في ليلة واحدة، لكن كان ثمة شيء آخر يشغل الثرثارين في التلفاز ويتابعونه بشغف؛ فهناك شيء غريب يحدث في الغوطة .. غوطة دمشق**!**

(٣)

في صباح شتوي مضمخ بعطر الثلج الذي يهطل بغزارة، محيلًا تربة (صحنايا)[٢] إلى فراش أستلقي عليه الثلج، بشكل يخالف عاداتها في تلك الأيام المبشرة بقرب حلول الربيع بقواه ليطرد الشتاء الغاوي الشرس؛ تراكم الثلج طبقة فوق طبقة، ومترًا فوق مترًا، وأطل على المدينة التي تشبه طبقا حفت به الجبال من فوق هامات المرتفعات المحيطة بها. استيقظ أهالي المدينة مذهولين من منظر الثلج المتساقط، كانت نباتات الربيع قد بدأت بشائرها وتفتحت أنوارها، لكن الثلج المفاجئ خنق كل شيء، الأكثر إثارة للدهشة هو الانخفاض الرهيب في درجات الحرارة؛ انخفاضًا لم تشهده تلك المدينة ولا ذلك الجزء من بلاد الشام ربما في عصور الجليد ذاتها، أما الأكثر غرابة حقًا فهو الشمس الباهتة الضعيفة التي أطلت عليهم من وراء حجاب من السحب الرمادية الثقيلة بوجه شاحب وكأنها تعتذر لهم عن انكسار قوتها أمام قوة البرودة العاتية، لكن لم يتوقع أحد ما سيحصل بعد ساعات!

---

[٢] صحنايا: بلدة سورية تتبع محافظة ريف دمشق وتقع في منطقة الغوطة الخصيبة

زوبعة ثلجية هائلة، تحركت ريح باردة مفاجئة هبت من مرقد مجهول حول المدينة، أغلب الظن أنها نزلت فوق رأسها من إحدى القمم الجبلية المكللة بالثلج السميك، نزلت الرياح دافعة أمامها كرات ثلج وذرات برد صغيرة، انساقت حبات الثلج الضعيفة وتلاشت مقاومتها أمام عصف الرياح الجبارة، دفعت الرياح كل شيء ثم ازدادت قوتها، فأخذت تكسر أنف كتل الجليد الكبيرة وتهشمها ثم تسوقها بعصاها أمامها بقسوة. بعد قليل تقدمت الزوبعة ضاربة شوارع المدينة الجميلة محملة بكم هائل من الغثاء والثلج والبرد، ومصحوبة ببرودة هائلة؛ سارع الأهالي بإغلاق أبوابهم ونوافذهم، خرجت الأمهات مذعورات بحثًا عن أطفالهن الذين خرجوا للعب أو لقضاء حوائج المنزل، هرع أصحاب المحلات التجارية القليلة التي بادرت بفتح أبوابها في تلك الساعات المبكرة وأغلقوا أبوابهم حاجزين زبائنهم بالخارج، انسابت البرودة ثلجا على النوافذ والأبواب، ورأي الناس بأعينهم الثلج وهو يتكتل ويتجمع فوق زوايا نوافذهم وخلف الزجاج، مرتفعًا طبقا فوق طبق حتى سُدت مجالات الرؤية أمامهم في غضون ساعات قليلة، ثم لم تلبث الصرخات أن بدأت تتردد في نواحي المدينة، كانت صرخات الرياح الباردة العاتية!

تقدمت الريح بحمولتها الثقيلة التي ما لبثت أن بدأت في طرحها فوق شوارع ومباني المدينة، وبسرعة البرق تجمعت جبال من الثلج ناءت بها أسطح وقباب كنيسة (مار إلياس الغيور) ومجلس

بلدية المدينة ومسجد (الشيخ العلامة أمين سويد)، أما البيوت الوطيئة فقد كادت أكوام الثلج تخفيها وتدفنها تماما. جري المذعورون القليلون عبر الشوارع باحثين عن ملجأ، الأبواب كلها مغلقة والنوافذ كلها مسدل عليها ستائر من جليد، الريح تصرخ عبر الشوارع وترمي البلدة بجلاميد من جليد سميك، بدأت بعض الأسطح تنهار وتسقط، البيوت القديمة دارت رؤوسها للحظة ثم نكستها وتهاوت مُذعنة لسلطان الموت البارد. بدأ سقوط المباني الدائخة أولا ثم بدأت المباني الأكثر حداثة والأقوى تصميما تشاور عقلها، مُبدية استعدادها الدائم للتهاوي في أية لحظة، فُتحت الأبواب قسرا واندفع الناس المذعورون المحاصرون بين خوفين كلاهما أقبح من الأخر، فإما أن يبقوا حيث هم حتى تسقط المباني فوق رؤوسهم؛ وإما أن يخرجوا لتمسك بها الريح الباردة التي تعربد في الخارج!

وقد اختار الناس الحل الثاني ظنا منهم أنه أكثر رأفة بهم، لكن من خرجوا أولًا سرعان ما تجمدوا أماكنهم قبل أن يجدوا فرصة للاندفاع بضع خطوات إلي الأمام، جحافل من أتوا بعدهم شاهدوا بأعينهم الريح الثقيلة وهي تدفع المتقدمين، وتطرحهم أرضا ثم تعضهم عضة الموت، ولم يلبث جميع من خرجوا واندفعوا أولًا أن انطرحوا أرضا على هيئة تماثيل متجمدة مكللة بالزرقة التي غطتها طبقة كثيفة من الشحوب الثلجي المخيف، انفجر الذعر في صحنايا الآن وبدأت محاولات الاستغاثة بمنطقة (داريا) أو محافظة (ريف دمشق) تتوالي، لكن كافة الخطوط

الهاتفية والبرقية كانت صامتة، سارع البعض بمحاولة استخدام شبكة الإنترنت أو مواقع التواصل من أجل إرسال الاستغاثة إلى العالم لكنها كانت مقطوعة هي الأخرى بطبيعة الحال!

حوصرت المدينة بين الموت والثلج والريح العاوية وبدأ الموتى يتكدسون، ساعات، ساعات وتنفد وسائل التدفئة، ساعات وينتهي كل شيء!

***

كان يقف سعيدًا مشرفًا على كل هذا الخراب، رآه البعض من دواخل بيوتهم ومن خلال الفرجات القليلة التي تركها لهم الثلج المتراكم فلم يصدقوا أعينهم، عملاق أشهب، شعره كثيف بلون الثلج يتطاير مع الريح القوية، يقف فوق هامة جبل من الجبال المحيطة بالمدينة التي أفترش الموت والخراب والثلج أرضها وتشاطروها بينهم هم الثلاثة، يقف هناك بعباءة مفتوحة يظهر من خلالها حجم عضلاته وصدره الهائل، ويقهقه سعيدًا بما يحدث أمام عينيه، رآه بعض الأطفال الذين لم يذعنوا لقانون أمهاتهم الصارم بالابتعاد عن النوافذ فصرخوا فرحًا، ظنوه عملاق ثلجي طيب آت لينقذهم من الحصار والموت لكن كم يسيء الصغار التقدير! فقد كان هو الحصار والموت نفسه!

كان "تموز" سعيدًا وهو ينشر جناح الموت على (الغوطة) وسكانها، إنها تجربته الأولي وليلة المرح البدائية له، إنه يكره تلك المنطقة منذ يوم موته فقد فازت بأكبر نصيب من جائزة دمه! خصوبة ورواء ونعيم أخضر، وعناقيد رضا متدلية؛ حسنا، حسنا جدا أيها الناعمين المتنعمين! ذوقوا وبال غضبة (تموز) وتجرعوا مرارة غضبه حتى الثمالة .. لم تكن (صحنايا) وحدها هي التي تجابه الموت والبرودة بل كل مدن الغوطة الغناء؛ ومتى تستيقظ (دمشق) من ثباتها وتدرك فداحة ما يحدث في المنطقة المنكوبة؟!

ذلك متروك للحظ وما أكثر عثرات الحظ وألاعيبه .. لكن اليوم الذي بدأ بالبرد والموت لا يمكن أن ينتهي سوي بكارثة ماحقة!

***

أخيرا نجح في الضغط عليها، مل ترقبها وقلقها المستمر؛ فأقنعها بالخروج معه لنزهة، كانت دمشق الليلية جميلة كالعادة وأنوارها ساطعة برغم الأخبار الغريبة التي تتوافد من الغوطة الغناء، يقولون أن الموت يهيمن على الرقاب هناك وأن الثلج يتراكم ويتراكم، استدعيت قوات الحماية المدنية ودُفع بالمزيد من وسائل التدفئة وكميات الوقود، حاولوا إجلاء الناس إلي أماكن

أكثر دفئا لكن إجلاء الجميع كان مستحيلا؛ كان هذا سيستغرق بضعة أيام وليس ممكنا أن ينتظر الناس المحاصرون تحت وطأة درجات الحرارة المتدنية التي لم تشهد لها سوريا مثيلا من قبل، كل تلك الساعات الطويلة دون أن تحل بهم كارثة!

لكن "حداد" رجل الأعمال الشاب الوسيم مفتول العضلات لم يكن يشغل باله شيء من هذا، اصطحب زوجته الجميلة المثيرة لسهرة صاخبة في ملهي يتلألأ بالأنوار، كان الناس هنا وهناك يتحدثون عما ألم بجيرانهم وأهلهم في (صحنايا)، وما جاورها من بلدات، لكنه كان يفكر في مزاج زوجته العكر فقط، لقد قضي يوما عصبيا بصحبتها وهي تزفر وتتنهد وتثور لأتفه سبب، وتكاد تمد أظافرها المطلية بالدم وتنزع أحشائه، إنها تراه باردًا غير مبال بما يحدث حولهما من مصائب! وقد كانت على حق في هذا .. فهو لا يهتم بما يحدث حوله بل يهتم بما يحدث له هو فحسب!

وبعد إلحاح منه قبلت أن ترتدي ثيابها وتخرج برفقته، ذهبا إلي ملهي صاخب وطلبا شرابًا مزدوجًا قويا، ابتلعت "عشتار" الشراب فبدأ مزاجها يعتدل، وحالتها تتحسن، ظلا جالسين يرقبان الرقص والصخب بعين مفتوحة قلقة خائفة، سرت الحركة من حولهما وإن كانت الوجوه قد تحملت بعلامات الخوف والقلق مما يحدث بالقرب من دمشق من ظواهر غامضة، كانت المرأة التي لفتت كل الأنظار بجمالها الباهر

تشرب جرعة أخري من الشراب ، الذي جدده لها رفيقها، الذي نال لعنات كل الرجال المحيطين وتغطي بغيرتهم القاتلة، حينما توقف السائل في حلقها، وتورم وجهها محمرا فجأة، اتجهت كافة الأنظار إلي حيث ثبتت عيني الفاتنة المذعورتين؛ بالقرب من باب الملهي المفتوح وقف شاب وسيم بعضلات هائلة، وبثوب عصري بأكمام قصيرة تبرز منها ذراعين مثيرتين للفزع والإعجاب بحجمهما الهائل اللافت، وقف هناك واضعًا ذراعيه إلي جانبيه رامقًا المنضدة التي جلس إليها الوسيم المتأنق ومرافقته الحسناء بعينين قادحتان منذرتان بالشر. أضاء الشر المكان، وشعر الجميع ببرودة هائلة تطبق على أنفاسهم، وبموت قريب للغاية يرفرف بأجنحته فوق هاماتهم المنخفضة مباشرة. غصت الفاتنة بالشراب وانتفخت أوداجها، بينما في لحظة تبخر مرافقها الوسيم تاركا إياها بمفردها في مواجهة العائد من الموت الطويل، "تموز" العائد الغاضب الحاقد!

***

غصت بالشراب حتى كادت تشرق به وتختنق، تمالكت نفسها لتبتلع ما وقف بحلقها، واتسعت عيناها ذعرا وهي تبادله التحديق، كانت تنظر إليه مرعوبة، بينما هو ينظر إليها ثابتًا

شامتًا، لقد حانت لحظة اشتهاها وأنتظر مقدمها منذ قرون طويلة خلت، لحظة الانتقام والثأر منها!

كانت جالسة هناك ترقبه مصعوقة قلقة، جالسة أمامه مثلما كانت تجلس في تلك الأيام البعيدة تحت قدميه وتغني له، كانت تغني له أغاني رقيقة ومليئة بالحب ومنومة، كان ينام وينعس على وقع أغانيها وعلى ترانيم صوتها الشجية!

***

ذات يوم ـ وقبل نحره المؤلم ـ كانت بجواره هكذا، يتبادلان حديثا مفعمًا بالحب وتتفنن هي في استعراض جمالها المبهر النادر، أتي "حدد" بجوارهما، وأخذ يتدخل فيما يقولان ويحاول أن يدفعهما لافتعال مشاجرة فيما بينهما، لم يدرك أنها كانت تخونه مع "حدد" وربما مع آخرين كثر إلا بعد أن رقد مذبوحا أسفل قدميها! لكن برغم كل شيء فقد كان "حدد" يحمل أخبارا سيئة ذلك اليوم، فلقد كانت "عشتار" الجميلة سيضحي بها!

قال لهما "حدد" أن المرأة قد استنفدت عمرها، ولابد من استبدالها؛ لن تُقتل لكنها ستفقد جمالها وسحرها، وسيأتون بأنثى جديدة من لدن الآلهة لتكون هي إلهة للجمال والأمومة والسعادة الأبدية. هبطت الدموع اللؤلئية فورا من عينيّ "عشتار"

الجميلتين، وعلت الحسرة محياها المليح وتبللت جوانح "تموز" بالحزن لأجلها. قال "حدد" مثيرًا المزيد من الحقد في قلبها والغيظ في قلب غريمه الوسيم:

"يقولون إنها أنثي جديدة فريدة الجمال، لقد صاغوها بالفعل وجبلوا جسدها، وفي انتظار أن تجف ليخلقوها امرأة كاملة وأسموها "براتي"، ستكون آية الجمال وربة الفتنة**!**"

أغمق لون "عشتار" الصافي، وغضب "تموز" لأجلها غضبًا شديدًا، لكنه تساءل بحذر وهدوء تجنبا لسلطان " حدد " القاسي:

"وحبيبتي، "عشتار"، ماذا سيحل بها؟"

بشماتة أجاب "حدد" مظهرا سخريته من تلك التي يدعي "تموز" الشاب أنها ملك له وحده:

"سيحلونها أسفل، ستنزل لتكون إلهة للصيد وربما للمراعي أو أي طائفة حرفية أخري، لا غرو أنها ستفقد الكثير وستزيحها "براتي" الحسناء قريبا جدا**!**"

بدأت "عشتار" تبكي الآن وغص قلب حبيبها حزنا عليها:

"أما من طريقة لتجنب ذلك المصير؟"

بالطبع كانت هناك طريقة وكان "حدد" يعرفها، مثلما كان كلا الحبيبين يعرفها جيدا، لكن من الذي سيفعل هذا؟ من سيفدي

جمال "عشتار" ومكانتها بدمه؛ ويقبل أن يُنحر ليزيح خطر الشتاء والموت عنها؟

ساد الصمت التام الآن، إنها لحظة التضحية والاختيار الحر المرة التي يلوذ فيها الجميع بالصمت! لكن "تموز" الواله المحب تقدم ليفرق سحب الصمت وهتف باذلا أغلي ما عنده:

"سأفديك محبوبتي - ولو بدمي - فلن أقبل أن تهاني وتنزلي عن عرشك بأيدي أولئك الآلهة القساة!"

أشرق وجه "عشتار"، التي بدت مستعدة للتهاون والتضحية بأي أحد مهما يكن، في سبيل إنقاذ نفسها وجمالها، وتربعها على عرش الجمال والفتنة، أما "حدد" فلم يبد عليه أدني انفعال أو صخب مشاعر، لكنه كان سعيدًا بحق، وبعكس ما توقع "تموز" فقد كان هذا ما ينتظره ويتمناه بالضبط!

كانت طقوس الذبح مؤلمة ومخيفة؛ لكن الخيانة التي أحاطت بالأمر كله كانت أكثر ألما ووجعا!

***

وقف يرمقها بصرامة، أشد ما تغيرت "عشتار" القديمة وأشد ما بقيت على حالها! ومثلما توقع بالضبط هجرها "حدد" النذل في

اللحظة المناسبة تمامًا، تقدم نحوها والجميع يتفرقون من حوله خوفًا وارتعادًا! لم يجرؤ أحدٌ على اعتراضه، وهو يتقدم نحو قلب الملهي حيث تحتل المرأة الحسناء منضدة بمفردها، بعد أن كانت تجالس رجلا الله وحده يعلم أين وكيف أختفي فجأة! بدأت موسيقي حالمة تدوي في تلك اللحظة!

كانت موسيقي تدعوا للرقص، لكن ما من أحد من الجالسين تجرأ على الاستماع لصوت الموسيقي وجذب رفيقته للرقص، بل كان الجميع يجلسون كخشب مسندة وطيور البوم تعشش فوق رؤوسهم وتنعق مثيرة الخوف والتشاؤم! لا أحد فيما عدا المقتحم الشاب المفتول العضلات الذي تقدم نحو المرأة الوحيدة، ومد لها يديه يدعوها للرقص، رفعت "عشتار" إليه عينان مرتعبتان يظللهما الخوف والجزع! مد لها يده يدعوها لمصاحبته، أبت خوفًا ـ لا تمنعًا ـ لكنه جذبها بقوة فأنتزعها من فوق مقعدها، وجذبها حتى وجدت نفسها بين ذراعيه على مساحة الرقص المضاءة بألف لون وألف ضوء مختلف!

بدأت الموسيقي من جديد، رغم أن "تموز" لم يكن بحاجة إلى موسيقاهم لتساعده على الرقص أو ليضبط إيقاعه عليها، فقد كانت موسيقاه الخاصة تدوي في أذنيه صاخبة مجلجلة منذ قرون طويلة خلت! تذكر آخر مرة صاحبته في الرقص، شعرت بذراعيه حولها فأجفلت وزاد ذعرها، التفتت جميع العيون إليهما وتابع الجميع بشغف ما يحدث!

أخذ يحركها بإيقاع هادئ وخطوات منتظمة فاستجابت له مذعنة مضطرة، بدأت الموسيقي تعلو وهو يدور بها في دوائر ودوائر لا تنتهي، جذبها إلى حافة البيست بقوة فكادت تذل قدمها وتسقط على المشاهدين المتطلعين بشغف ورعب وجمود، كان الجميع يدركون أن ثمة شيء غريب يحدث أمام أعينهم، شيء غريب يستحق المتابعة والانتظار!

الآن علت نغمات الموسيقي إلى حد جنوني، الغريب أن الموسيقي التي تصدح حاليًا ليست هي التي شغلها عمال المرقص، ولا وجود لأسطوانة مشابهة لها عندهم، إنها موسيقي صادرة من مكان آخر غير معروف، عالية خلابة جميلة مختلفة النبرات متداخلة النغمات، جميلة مخيفة تستدعي رغبة الإنسان الأبدية في مواقعة الرقص وإتيان نغمة الكون من منبعها إلى مصبها، واعتراض مجري القدر إن أمكن بنغمة احتجاج باسمة مبللة بالدموع!

ذهب الناس مع الموسيقي أينما ذهبت، وحدها "عشتار" التي كانت مالكة لوعيها منفصلة تماما عن السحر الذي يدوي حولها، والذي لم يتجاوز طبلتي أذنيها المسدودتين، ظل "تموز" يدور ويدور بها حتى وجد أنها لقيت ما يكفيها من ذعر وعانت ما تستحقه من انتظار مؤلم، إنه أكثر رحمة منها لذلك فلن يجعل انتظارها يطول ولا عذابها يصبر طويلًا حتى ينقضي!

فجأة رفعها من وسطها إلى أعلى، وجدت نفسها محمولة بقوته الهائلة الفتية وترتفع لأعلى نحو نجم هاوي مبهر الألوان، يسقط فوق رأسها من السقف الملون المزين بالأضواء والمشاعل الكهربائية الصاخبة. رفعها فجأة، ضربها بقوة في شيء يعلوها، ضربها مرة فأنفلق رأسها، أراحها لأسفل ثم ضربها الثانية، فقط لينفصل رأسها عن جسدها ويطير مذعورًا منبلق العينان للأمام، ساقطا فوق الناس. اندفع الناس صارخين هاربين في كل صوب وناحية، بينما اندفعت نافورة دماء حمراء قانية صارخة من موضع عنقها الممزق ورأسها المنتزع!

وبدأت ليلة رعب تخيم على "دمشق"، ليلة بدأت بجريمة في مرقص مزدحم لكنها لن تنتهي بها بكل تأكيد؛ فهناك المزيد من الذعر في انتظار المدينة الراقدة كغانية في بحر خلودها وجمالها القديم!

***

هرعت أفواج من الناس المخابيل المذعورين محطمة أبواب الملهي الدمشقي ملوثة بالدماء، وانتشرت عبر الشوارع صارخة مثيرة موجة هائلة من القلق والذعر، قيل إن هناك رجل مجنون مفتول العضلات خارق القوة قتل امرأة داخل الملهي، وفصل

رأسها عن جسدها. كان الخبر صحيحًا بلا شك لكن أحدًا لم يصدقه، لم يصدق الناس حرفا وشاعت موجة من السخرية، وقيل إن رواد الملهي المحترمين أفرطوا في الشراب، وربما في تعاطي ممنوعات مخدرة فحدثت لهم حالة هلوسة جماعية!

ونفس هذا الرأي كان ما رأته إدارة الشرطة في (دمشق) حين هرع كثير من الأشخاص شبه المخمورين إلى أقسام البوليس مبلغين عن الجريمة التي رأوها وشهدوا عليها بأعينهم صارخين مرددين عبارات تدل على أنهم في حالة صدمة وهذيان. تم التحفظ على بعض أولئك المبلغين، الذين كانت حالتهم العصبية في أسوأ نموذج ممكن، وسيق من تمالكوا أعصابهم منهم ليرشدوا قوة الأمن الصغيرة، التي تحركت لتفقد الأمر، إلى عنوان الملهي المشتبه في وقوع جريمة نحر وقطع رأس فيه على مرآي ومسمع من الزبائن المحتشدين بداخله، كان مدير أمن (دمشق) يغط في النوم منكفئا على وجهه ولا يفكر أحد في إيقاظ عظمته لإبلاغه بأن هناك شيء غريب يحدث في مدينة دمشق العامرة الهادئة! وحينما وصل رجال الأمن كان الملهي المقصود غارقا في الهدوء والظلام!

أطفئت كل أنواره وغرق مبنييه، الأساسي والملحق الصغير الخاص به، في ظلام منتشر غريب، وخيم عليه صمت جعله يبدو كما لو كان يقع في فلاة منفصلة عن الصخب والضوضاء والأنوار الضاجة التي تعكر صفو العالم الحالم النائم المحيط به!

اندهش الجميع من ذلك المنظر، لكن إن قُدر لهم أن يعلموا بما يحدث داخل الملهي المقفر الآن، أو لو أطلعوا على ما سوف يحدث خلال لحظات، لكانت دهشتهم قد تضاعفت ألف مرة!

***

كان الجسد مسجي عند قدميه، الجسد الأنثوي الفاتن المتناسق الأهيف الخصيب، جسد بلا رأس يحرقه بنظراته المستعطفة، ويمنحه عين حب مترعة بالخيانة والغدر، لقد خلص العالم من غدر "عشتار" وشرها فحق له أن يسعد ويفخر بما فعل! لكن "عشتار" لا تموت! هو يعرف هذا جيدا ويعرف أنها سرعان ما ستولد من جديد! إنها تسكن الأجساد وتخطف أبدان البنات، ولا ريب أن روحها تهيم الآن باحثة عن بنت حسناء تستولي على جسدها وعليه تستحوذ وتسكنه حتى يبلي أو تدركه الشيخوخة والمرض فتهجره وتتركه لتبحث عن غيره! إنه قادم ليدمرها هي لا ليدمر إحدى صورها فكيف يستطيع منعها من العودة من جديد؟! بسيطة؛ جميع الفتيات الجميلات في دمشق يجب أن يلقين حتفهن، والليلة وليس غدا أو بعد غد!

ضحك "تموز" ساخرا وهو يتصور نفسه يطارد "عشتار" عبر أردية من أجساد البنات ويمزق لها كل لحظة جسدا تلوذ به، لتهرب منه صارخة مولولة وتهرع لتختبئ في جسد فتاة أخري، فيقتلها أيضًا، حتى لا تجد الخائنة القديمة أمامها إلا الاستسلام للموت والفناء! ستهلك الليلة مهما فعلت ومهما حاولت المقاومة ولجأت إلى الحيلة وغواية الزمن الفاجر الملقي تحت قدميها!

"حدد"؟

تذكره الآن فقط، لم يأبه لاختفائه لكنه خصم لا يجوز نسيانه في تلك الحومة أو التغافل عن شره وخطره! هل يبدأ بها هي أولا أم بعشيقها النجس "حدد"؟ الوسيلة الأسهل هي أن يبدأ بكليهما وينتهي منهما في نفس اللحظة!

كان رأسها ملقي وسط المقاعد الخاوية والمناضد الفارغة فأسرع إليه، لكنه لم يجد الرأس حيث كان يجب أن يجده! دق قلب العائد من الموت الطويل قلقا لأول مرة؛ فأين ذهب رأسها إذن؟ لقد طار ساقطا بين المناضد ورآه بعينيه يفتح فمه صارخا قبل أن يدهمه الموت السريع، وأغفل أمره ليهتم ببقية الجسد، رآه بعينيه فأين أختفي إذن؟!

***

أحاطت الشرطة بالملهي فتدفق الناس زرافات ليشاهدوا ويتفرجوا على هذا السيرك المنصوب غير مبالين بتحذيرات الشرطة لهم بأن يبقوا بعيدا حفاظا على أمنهم وسلامتهم، كما أن الملهي المظلم الساكن لم يبد مصدر تهديد محتمل لأي شخص، حتى لرجال الأمن أنفسهم الذين تقدموا نحوه بأسلحة مغمدة في أجربتها وبهدوء يخيم على أعصابهم! ما الذي يمكن أن ينتظرهم في الداخل؟ قاتل واحد بسكين ؟! ما أتفه ذلك ولعلها في النهاية ليست إلا تهيؤات سكارى ماجنين لكنهم ملزمين بتحري الأمر والتحقق منه!

(٤)

في زمن آخر حدث ذلك!

كان رأسها متدل من يده، قبضت يده الفولاذية على الشعر المسترسل الذي طواه على أصابعه، تاركًا الجمجمة المغطاة باللحم تتدلي كرقاص ساعة متطوحًا في الهواء، لقد أفلت من عدوه بفضل الميزة الوحيدة التي فُضل بها على سائر الآلهة القديمة، قدرته على السير في الزمن واختراقه!

لقد كان لـ "حدد" في أيامه الخالية تلك الميزة الفريدة؛ إنه يستطيع التنقل عبر الأزمان بسهولة واضحة مثيرة للدهشة، حسنًا لم يكن الجميع يعرفون بأنه يمتلك تلك المقدرة ولا يقدرون خطورتها! حتى "تموز" ذهل عندما أختفي من أمام ناظريه، وناظري "عشتار"، فجأة تاركا مكانه خواء يضربه الهواء، لم يختفِ في الحقيقة بل ظل جالسا في مكانه بالضبط لكنه أنتقل لزمن آخر؛ زمن يسبق ظهور عدوه القادم من جدثه المفتوح بألفي عام، ويسبق كل تلك التداخلات الزمانية والمكانية والعاطفية بقرون بعيدة. عاد لمعبده في أرضه القديمة ليجد كهنته يقدمون له القرابين بينما عواصفه الصناعية تمور هائجة على قمة معبده المرتفعة المدببة!

تلك العواصف الصناعية إنها يعرفها جيدا، ويعرف كيف يصنعونها بدهاء ليوهموا الناس بأنه قادر على بذل العواصف والتبرع بالغيث الغزير، يا لهم من بلهاء مخدوعين!

تريث حتى شعر أن الزمن الأول ـ الذي آتي فارا من شر "تموز" فيه ـ قد خيم عليه الهدوء والسكون؛ لقد رحل الخطر وتباعد عنه. كان قد أختلس الرأس المبتور الجميل دون أن ينتبه له الثمل بنشوة انتقامه!

حمل رأس محبوبته معه، مع أنه لم يكن يدري ما الذي يمكنه فعله به؛ إنه واثق من أنها تبحث الآن عن جسد تسكنه لكن رأسها لم تعد بذات بال ولا أهمية لها! لكن من قال إنه حمل الرأس من أجل خاطر عيني العشيقة الميتة ـ مؤقتًا ـ لا بالطبع! فمنذ متى و"حدد" يفكر بأحد أو يعنيه أحد سوي نفسه؟!

إن ذلك الرأس يمكن أن يكون سلاحا ماضيا في حربه ضد "تموز"، وضد "عشتار" أيضا؛ فهو يعرف أنها ستعود قريبًا، ستعود غاضبة هائجة ولن تنس له أنها خانها وتخلي عنها في مواجهة عدوها وعدوه!

بل قد يتحد العدوان ضده، إن الرأس المفصول سيكون درة ثمينة ساعتها لأن جزء من روحها معلق فيه، جزء من جبروتها محبوس بداخله! لكن إلى أين يمكن أن تكون "عشتار" قد انطلقت الآن؟ وماذا تراها تصنع ؟!

***

لاهثة الأنفاس فرت روحها هاربة، كانت تراه بعينيها الاحتياطيتين وهو يضربها في النجم الساقط فوقها، ويشطر رأسها ثم ينتزعه كله ويفصله عن جسدها، كان هذا آخر جسد امتلكته وكان عزيز عليها للغاية، استحوذت عليه من شابة سورية في الخامسة والعشرين، بعد أن قتلتها في حادث سير مدبر، لتأخذ هي جسدها وتستولي على جمالها، وتغطيه بالراتنج وخلطة الشباب العشتارية الدائمة المفعول، وتنقع الجسد حسن التكوين في دموع زهور الليليك النادرة التي لا يُتحصل عليها إلا في ضوء القمر الباهر الهابط نحو الأرض في ليلة واحدة كل عشرة أعوام من الزمان، لمدة عام كامل، خرج الجسد بعدها وقد أكتسب مزيدا من الحسن ومزيدا من النضرة والجمال، لكن "تموز" اللعين أتي فجأة ليدمر لها كل هذا الذي تعبت في صنعه**!** من أين تراها تستطيع الحصول على جسد مماثل آخر أو على دموع الزهرة النادرة؟**!** ليس أمامها إلا أن تنكمش على نفسها وترضي بأي مقر إقامة مؤقت؛ حتى تحصل على مستقر دائم يليق باسمها وبسمعتها كربة للجمال والفتنة**!**

لم تكن تعرف أن رأسها، رأس جسدها المقوض الأخير، بحوزة الخائن "حدد"، الذي تخلي عنها في لحظة المواجهة الدامية، تماما مثلما كانت تتوقع منه أن يفعل**!** لا عيب عليه فهو نذل من

بدء الزمان، لكنها كانت تتوقع ـ تتمني في الواقع ـ أن يدافع عنها ويحامي لها ولو قليلًا قبل أن يلوذ بالفرار، على كل حال هي علمت نفسها منذ أجيال ألا تعلق قلبها ولا أملها على رجل مهما يكن فكلهم خونة أنذال!

مشت في البرودة شاعرة بأن الريح الثلجية تلفحها وتعصف بها، وتكاد تقتلعها من فوق الأرض التي تسير معلقة على مسافة قريبة منها، كانت لا تزال في مرحلة ضعف لا تستطيع معها ملامسة الأرض أو الدب فوقها، ولا تستطيع أن تحلق في السماء وتشارك النجوم أفلاكها ومصائرها. بعد قليل اشتدت البرودة وعصف الرياح الباردة وجعلتها توقن أنها ستقدم ولو كارهة على الحل المقيت؛ أن ترضي باحتلال أي جسم مؤنث حتى تجد ما يناسبها من أبدان ممشوقة مكللة بتاج من السحر والجمال!

كانت تسير على مقربة من قرية سورية صغيرة، وقد بدأت الشمس تظهر في الأفق طاردة قدرا ضئيلا من البرودة التي تخيم على المناخ الذي أنقلب رأسا على عقب، وأثناء ذلك لمحت فتاة صغيرة تربط رأسها بمنديل قذر، وتسوق أمامها بقرة ضخمة بضرع متدل منتفخ وتحثها على السير بفرع شجرة لا يزال أخضر رطيب، كانت الفتاة قبيحة بحق وقميئة وذات سحنة تعتبر مثالا حيا للقبح وانعدام التناسق بين الملامح! لكنها ـ برغم ذلك ـ كانت تبتسم سعيدة راضية وثمة خاتم زواج يلمع في بنصرها الأيسر! خاتم زواج! أي رجل هذا الذي قبل بأن يقترن

بتلك القبيحة المزرية بمعاني الأنوثة والفتنة والجمال؟ لابد أن يكون ـ مثله مثلها ـ قبيحًا قميئًا كريهًا!

الغريب أن "عشتار" التائهة راق لها فجأة أن تسكن هذا الجسد القميء، أن تحيا بوجه قبيح وبملامح خادمة عتيقة من خادمات إله الشر، الذي لا تزال ذكراه جاثمة على قلبها وأنفاسها!

يصعب أن يصدق المرء أن كائنة تائهة مشردة بدون جسد تعاني البرد والقر والهوان، والمطاردة من عدو قوي مخيف تهفو نفسها فجأة إلى مغامرة صغيرة مثيرة للسخرية، لكن هذه كانت "عشتار" دائما التي هي حبيبة زوجها والذي هو من نسلها!

كانت الفتاة الشابة المدعوة "رواء" ـ وهو ما يتناقض مع منظرها شكلا وموضوعا ـ تسير قائدة بقرتها إلي مرعي صغير خارج القرية، لتطعمها وتبقيها ريثما تأكل وتشبع ثم تعود بها لتحلبها، بعد أن تكون قد ملأت جوفها من الأعشاب الرخصة الندية، ثم تبدأ بعد ذلك في غلي اللبن وتقديم الإفطار لأسرتها والقيام بأعمال المنزل وهلم جرا ..

لكن لم يدر بخلدها أنها ستمر هذا الفجر بتجربة غير عادية؛ فقد توقفت فجأة على جانب الطريق خلف بقرتها وشعرت بشيء بارد يقترب منها، حسبتها نسمة بكور باردة عابرة لكنها لم تكن كذلك، فقد أحست ـ خلال لحظة ـ بتيار بارد يسري عبر أنفها ويتسلل إلي داخل صدرها ثم هبط شيء صلب بثقله في معدتها

وأحست بأن أمعائها تنقلب، سقطت على ظهرها جائرة بالشكوى، وتمخض الألم في عروقها عن لسعات من نار باردة، قمة التناقض، تحرقها وترعشها في نفس اللحظة. خلال لحظة هوت غائبة عن الوعي فأنسل الحبل الذي تمسك بطرفه في يديها بينما يلتف طرفه الآخر بحنان حول رقبة البقرة وتكوم الطرف بالقرب من يدها المفتوحة، بينما يدها الأخرى تطبق على صدرها محاولة البحث عن هواء لتتنفسه، كانت "عشتار" تتسلل إلى داخلها الآن!

قاومت الفتاة التغيير والتبدل للحظة لكن كل قوتها كانت قد استنفدت، استسلمت أخيرا لسلطان قوي أكبر وأكثر ضراوة مما تتخيل وسقطت غير دارية بشيء مما يدور حولها!

خارت البقرة حينما شعرت بالتحرر، وأنفلت مقودها من يد سيدتها، فخطت مبتعدة في تثاقل ولكنها بقيت على مقربة من مكان الحدث!

الآن أصبحت "عشتار" القوية بالداخل، ساءها ما رأته تحت الثياب وامتعضت ملامحها الذابلة الجميلة، حُكم عليها أن تتعايش وتعيش بجسد هذا شأنه لكنها راضية! ولعل من الخير لها أن تختفي في مكان لا يتوقع أحد وجودها فيه، مكان لن يخطر ببال "تموز" ولا ببال "حدد"! مكان يمكنها أن تعيد التفكير فيه وتهيئ نفسها للأسوأ القادم، وفي نفس الوقت تلهو قليلا وتعابث حظها بيد خبيرة قديرة، وتقضي وقتا طيبا في رحاب

مكان غير مألوف، ووسط أوجه جديدة لا تعلم عنها، ولا عن كينونتها القديمة، شيئا!

***

التحفت دمشق ثوب الظلام وهجعت نائمة أخيرًا، أنتهي موضوع جريمة الملهي إلى لا شيء على الإطلاق؛ فقد اقتحمت الشرطة المكان لتجده خاليًا أولا وصمت مخيف يهيمن عليه، لم توجد أية آثار تدل على وقوع جريمة ولا على أي شيء غير اعتيادي، المناضد والمقاعد في أمكنتها ولا شبهة تختبئ خلف الأغراض الثمينة الملقاة في كل حدب وصوب، والتي تساقطت من أيدي وجيوب الزبائن وهم يهرعون إلى الخارج هاربين مذعورين، يفرون من الموت كجرذان شتتت شملها قط ضخم ذو أنياب حادة. فتشت الشرطة كل ركن في الملهي بدقة شديدة غير معتادة لكنها لم تعثر على شيء، والحقيقة أنه كان هناك شيء، شيء ضخم هائل الحجم لكنهم لم يرونه أو لم يستطيعوا رؤيته!

"تموز" كان هناك، أعتلي أعلى نقطة في المبني الذي يقع الملهي الليلي ضمن مساحته وصعد حتى لامس طبقات الغلاف الجوي بيديه، كان حانقا ساخطا فقد فر منه "حدد" وفقد رأس الخائنة التي قتلها بيديه!

كان "تموز" يعلم أن "عشتار" لها طرق ملتوية لا نهاية لها، وأن فقدان أي جزء من جسدها القتيل قد يعني أنها قادرة على العودة .. قادرة على العودة بطريقة ما لكنه لن يمنحها الفرصة لذلك مهما كان الثمن المدفوع في مقابل تحقيق هدفه!

لابد أنها لا تزال في دمشق وليس واردا أبدا أنها تمكنت من الفرار منها في تلك الساعات القليلة، إذن فلتهلك دمشق بمن فيها لتهلك معهم "عشتار" الخائنة القذرة!

وبمجرد أن غادرت قوة الشرطة اللاهية المبني حتى كان "تموز" يصب جام غضبه على المدينة القديمة!

مصير كمصير (صحنايا) وما حولها ينتظر دمشق إن لم تظهر الخائنة الهاربة اللحظة أو يسمع بخبرها أحدهم!

وقف "تموز" مطالعا المدينة الراقدة تحت قدميه، ثم فتح فمه وأطلق صرخة وعلى إثرها اندفعت رياح باردة عاتية مخيفة، لها صفير ودوي هائل، تعصف بالمدينة الهاجعة في غفلة!

(٥)

كانت تعرف أنه سيلاحقها أينما ذهبت، لهذا من الخير لها أن تختفي لأطول وقت ممكن، وقد اختارت تلك القرية البعيدة عن قلب دمشق بضربة حظ، ولحظة عبث مقدرة سلفًا، وبقليل من الحظ الذي كان يعترض طريقها دائما. تبدلت الإلهة القديمة الآن وخلعت ثوبها الأنثوي الهفهاف، لترتدي ثوب مخلوقة المفترض أنها أنثي أيضا؛ لكنها قبيحة خشنة مثيرة للاستياء والاشمئزاز، حتى رائحة ثيابها كانت مقرفة**!**

"أوووووف**!**"

نفخت "عشتار" من طرف أنفها وهي تتشمم ثياب الفتاة التي أصبحت تغطيها الآن؛ كانت الثياب تحمل روائح مختلطة من قاذورات المنازل، لنفايات الحقول، لنجاسات البهائم، شيء مقزز بالفعل لمن قضت طوال عمرها ملفوفة في غلالة من العطر ورائحة البنفسج وعبير الأزهار القمرية النادرة**!** لم تكن في حالة تسمح لها بأن ترعي بقرة ضخمة أو تتولي إطعامها، لذلك ضربتها على عاتقها بقوة وقالت لها بقسوة:

"هيا اذهبي من هنا، ابحثي عن عشب وأرقدي عليه**!**"

ضحكت وهي تتحول إلى الناحية الأخرى وتبدأ في العودة إلى القرية التي بدأت تستيقظ من نومها في صورة "رواء" القبيحة! كانت مساكن القرية كلها متشابهة فكيف السبيل لمعرفة أي بيت منها يخص صاحبة الجسد الذي تتلبس صورته! لكنها لم تحتاج إلي بذل جهد لمعرفة ذلك؛ فقد دلها حدسها القديم على البيت المقصود، ولم يكن سوي كوخ صيغ من الطين وخشن الأحجار وغطي بسعف نخيل والبوص ومخلفات الحقول وشوائب الزرع كالعادة .. أوف!

أي مكان عفن حكمت على نفسها بالبقاء فيه؟ لكن خيرًا تفعل إذ تتحمل ذلك، فهنا مكان لن يفكر "تموز" أبدًا في تعقبها فيه، لأنه لن يخطر له ببال، ولا حتى لـ "حدد" نفسه، أن يكون ذوقها قد تدني لدرجة أن تعيش في داخل هذا الجسد وتحيا في داخل هذا الجحر الطيني!

استقبلها شاب جميل بجسد ممشوق زاده الجلباب الريفي النظيف الذي يرتديه جمالا وسطوع بنية، شاب كالقمر لكن ما العلاقة التي يمكن أن تكون بينه وبين صاحبة الجسد والملامح القبيحة؟! أخوها؟! قريبها؟! لا لا تقل لي إنه .. زوجها ؟! مستحيل!

أسرع الشاب نحوها وضمها إليه برقة فأحست "عشتار" بقوة ذراعيه ودفء أحضانه، سألها وهو يلمس المنديل الذي يغطي شعرها برفق:

"حبيبتي لم عدتِ مبكرًا؟ وأين البقرة؟"

رفعت المختفية تحت جلد زوجته عيناها، وتطلعت إليه بشغف، لم تكن تعرف اسمه فقررت أن تنتحل له صفة تناديه بها حتى تخرج من هذا المأزق كما تخرج من غيره عادة:

" شعرت بتعب يا حبيبي .. فعدت!"

ضحك بوجهها وقال وهو يمس بطنها برفق:

" لابد أن الصغير يعبث بالداخل، لكن أين البقرة؟"

ابتعدت عنه فورا وأخذت تنظر إليه بفزع، ثم تدنت عيناها إلى بطن "رواء" المسطحة ونظرت إليها برعب، هذا يفسد كل شيء! حامل؟ أهي داخل جسد أنثى حامل؟ سيتحمل الجنين ببذرتها الآن وسيكون من نسلها هي؛ نسل "عشتار" وليس من نسل البشر! اللعنة! أي مصير أسود اختارته لنفسها؟!

عاد يسألها عن البقرة لكنها لم تسمعه، ولم تفهم شيئا مما يقوله، قطع كلامه خوار خفيض قريب فأسرع ليفتح الباب، كانت البقرة هناك أمام الباب محلولة من مقودها، وتعبث بالعشب خارج البيت الذي عادت إليه بمفردها كما عودوها ودربوها!

ضحك "حسن" وقال لزوجته كما يعتقد:

"الحمد لله، لقد عادت بمفردها، كنت أعرف أن الحبل أنفلت من يدك وأنها تركتك ورجعت بمفردها!"

لم تفهم شيئا مما يقصد، ولم يعنيها أن تفعل، ملأها الذعر الآن حينما أقتاد الزوج البقرة إلى الداخل، وربط عنقها بالحبل جيدًا وقال وهو يستعد للخروج:

"إن كنتِ متعبة يا حبيبتي فامكثي في المنزل، سآخذها إلى المرعى فليس لدي عمل في الحقل اليوم!"

لف طرف الحبل الغليظ حول ساعده العريض، وقال وهو يقبل جين زوجته:

"هل بإمكانك أن تعدي لنا طعاما؟ إذا كنتِ لا تستطيعين فلا بأس سأطبخ أنا عندما أعود، ارتاحي ولا تفكري بشيء! "

ما هذا ؟! أي حب يغمر به تلك المخلوقة القبيحة؟! لكن هذا الشاب الجميل يستحق مئونة التجربة السخيفة الغريبة!

***

غادر "تموز" المكان أخيرًا، أفلت منه "حدد" وفقد رأس "عشتار" التي لا يستطيع الجزم الآن بما إذا كانت حية أم ميتة! عظيم، إنجاز هائل في ليلة واحدة! وهكذا تمخضت غزوته الجسورة على الملهي الذي كانا يصخبان فيه عن خيبة أمل كاملة! المصيبة أنه فقد رأس "عشتار"، والمصيبة الأكبر أنه لا

يعرف كيف أستل أحدهم الرأس من تحت أنفه دون أن يدرك ذلك أو ينتبه إليه!

نظر نفسه مفكرا لأول مرة، هل تراه فقد جزأ مهما من قدراته وهو راقد تحت التراب؟ لم يدر بخلده قط أن الدفن المحكم لقرون يمكن أن يفسد طبيعته، لكنه يدرك الآن أنه يجب أن يكون أكثر حذرًا وأقل غرورًا بقوته في المرة القادمة، ولكن أين يمكن أن يكون "حدد" اللعين الآن!

بوسعه تشمم رائحته لذلك انطلق ليجوب سماء سوريا كلها متعقبا إياه باحثا عن رائحته الرطبة الكريهة المحملة برائحة كهربية مثيرة للغثيان! لكن ليس هناك أدني أثر له ولا لرائحته؛ تماما كما أنه ليس هناك أي خيط يمكن أن يقوده إلى "عشتار" اللعينة!

فقد أثر الاثنين لكن ثمة أمل صغير يراوده؛ أن يفقد أحدهما أي كمية من الدم! يستطيع أن يتتبع رائحتهما عن طريق الدم، ولو نزف أحدهما ـ حيث هو الآن ـ قطرة واحدة من دمه الأزرق فيمكنه بسهولة أن يأتي به في لمح البصر!

وحتى تحين تلك اللحظة وتأتيه رائحة الدم بالخبر اليقين عليه أن يكمل انتقامه ويجعل اختباءهما في أي مكان أمر جد عسير! إنها ليلة دمشق الليلة لتلقي مصيرها وتلحق بالغوطة، فلا منجي لكم الليلة يا سكان المدينة العتيقة الغافلون! صعد فوق سطح مرتفع ونفخ صدره، وتهيأ لقذف المدينة بحمم غضبه الباردة!

***

في معبده جلس "حدد" مُعتليًا عرشًا من العاج المطعم بجواهر ثمينة عتيقة يتقبل القرابين والهدايا، كان كاهنه الأكبر "كمكم" يقدم إليه رأسًا بشريًا قربان خلاص ورضا، بينما هو سادر في تخيلاته الباطلة مفكرا فيما مر به الليلة على يد "تموز" اللعين العائد بقوة من الموت!

كان الكاهن الذي ناهز عمره الثلاثمائة عام في حيرة من أمر سيده المقدس الغير مبالي بما يسوقه إليه عبيده من قرابين مثيرة للرضا والغبطة، كان يعلم أن "حدد" يسير عبر الزمان وأنه جاء مهرولا من زمن ما يبدو أنه رديء جدا!

"زمن رديء للغاية يا "كمكم"، أكثر رداءة من كل ما تتخيل!"

نظر إليه كاهنه بذعر وقال مذعنًا، وكأنه سمع وصفا دقيقا لكارثة كونية مروعة وليس مجرد جملة عابرة تحمل خبرا مشكوكا في صحته:

"الحمد للآلهة أننا لم نخلق في هذا الزمان الرديء!"

رد عليه سيده بشرود:

" بل أنت لا تصلح إلا لهذا الزمان أو مثله يا "كمكم" المخلص!"

والحقيقة أن الكاهن الأكبر لم يكن مخلصًا حقًا كما يتخيل "حدد"، أو يطيب له أن يعتقد؛ فقد كان هناك لغز حول ذلك الرجل المسن الداهية، وأسئلة حول سلوكه وتصرفه في إيرادات معابد الآلهة التي يحوز بمفرده مسئولية الإشراف عليها تبعا لقرار غريب حصل عليه من لدن الملك "ملكارت" الصغير الخاضع لوصاية أمه، التي قيل إنها تجل مقام "كمكم" وتعتبره حامي حمي عرش ولدها الصغير المهدد بكافة أنواع الأخطار. لم يكن للآلهة دور في جلب الحماية أو دفع الضرر و"حدد" بالذات لم يكن الناس والعباد يرجون أكثر من دفع ضرره وتجنب شروره وصواعقه القاتلة!

لكن "حدد" كان شاردًا تائهًا، ولا شيء من هذا يشغل باله المهموم، كان رأس "عشتار" لا يزال في حوزته لكنه يجهل - حتى اللحظة - فيما يمكن أن يفيد منه؛ إلا أن فكرة عابرة مفاجئة جعلته يشعر بأن الحل قريب جدا من يديه!

***

بقيت "عشتار" بمفردها في البيت الصغير:

"أي بيت؟ إنه جحر من طين!"

قالت لنفسها هازئة ساخرة، لكنها ما لبثت أن تذكرت ملامح الشاب الحسن الوجه الجميل الإهاب "حسن"، لقطت اسمه أخيرا من ذكريات "رواء" التي تحوم بداخل رأسها، فتنهدت بحرقة معبرة عن إعجابها الخالص وامتنانها للحظ الذي يوقعها دائما في طريق الشبان المتفتحين الذين يشبهون الورود اليانعة! ولا تدري لم أعادتها ذكري "حسن" بملاحته إلي ذكرى "تموز" الذي كثيرا ما أحبته في أيامها المنصرمة.

الحقيقة أنها كانت تحب الفتي الجسور القوي "تموز" كثيرا في أيامهما التي قضياها معا؛ لكنه لا يريد أن يفهم أن محبتها له لا تعني أن تضحي بحياتها من أجله، ولا أن ترفض تضحيته بحياته من أجلها! إنها الأم الأولى وربة النساء، ومن الواجب أن تبقي، وأن تحافظ على بقائها، ولو هلك دون بقائها وديمومة جمالها وسحرها، كل صنف الرجال!

ما فائدتهم على الأرض أصلا ؟! إنهم يحملون البذرة لكنها هي وبنات جنسها من يحتضننها وينمينها، لا قيمة لهؤلاء الرجال بدوننا ومن الواجب أن يدفعوا أرواحهم فداء لنا وليس من حقهم المطالبة بأي شيء في المقابل!

كان "تموز" واحدا من القلائل الذين أحبتهم بصدق، ولعله الوحيد، لكنها لا تمانع أبدا في ذبحه مرة أخري تحت قدميها من أجل حياتها الغالية، وليس مرة أخرى واحدة فقط؛ بل مرارًا وتكرارًا إن لزم الأمر!

لماذا عاد من الموت؟ ألم يكن القبر أكثر راحة له؟

جلست فوق مصطبة من طين فآلمتها أوصالها الرقيقة من خشونة الطين وعنف المجلس غير الوثير .. أوف!

ستوردها نزواتها العاطفية موارد الهلاك دائما! أليس من الخير لها أن تغادر ذلك الجسد القبيح والمنزل الحقير وتبحث عن ملاذ آخر أكثر ملائمة لها؟

لم تكد تفكر في تلك النقطة حتى تحرك الجنين في أحشائها! في أحشاء "رواء" في الحقيقة، لكنها أحست بركلة قدم نزقة عابثة في جدار بطنها فتحول وجهها للون الأحمر وتذكرت أنها نسيت موضوع الحمل هذا!

تحرك فضولها فقررت أن تدخل لتستكشف الأمر! تجاوزت جدار البطن بسهولة، ثم نفذت إلي حيث أستقر الجسم العضلي الكمثري الشكل الذي تمدد مع الحمل، وتغير شكله جزئيا، الجسم السحري الذي يحتضن حياة تافهة صغيرة غير محسوسة أقرب للموت منها للحياة، ويخرجها في أوان معلوم، صاخبة ضاجة نابضة بالصوت والحركة لتعافر العالم وتتغلب عليه، هذا الجسم الصغير المقدس كان يقبع هناك، وارتجفت "عشتار" لرؤيته وهي التي انتزعت رحمها الأساسي بنفسها لئلا يأتي من نسلها من تنافسها جمالا، وتستولي على عرشها الأنثوي الباهر، أنجبت الذكور لكنها قتلتهم كلهم وأكلت قلوبهم ولكنها عندما أحست أنها

ستأتي بالأنثى انتزعت الرحم ومزقته وألقته بعيدا! وها هو ذا الرحم المليء داخل جسمها مرة أخري، وإنها لترتجف ذعرًا وتخشي تحقق أسوأ كوابيسها!

اخترقت جدار الرحم، وصارت بالداخل، وفي الكيس الشفاف وبداخل السائل العجيب وجدت كتلة صغيرة تعوم، عرفت أنها في الشهر الثالث وأنها أنثي! طفلة وقد تحقق كابوسها ولا قدرة لها على قتل المخلوقة الصغيرة الآن!

فتحت المخلوقة عينيها اللتين تظهران بوضوح في رأسها الذي هو أكبر ما فيها في تلك المرحلة وحدقت في "عشتار" دون وجل أو خوف، نظرتها المرأة القديمة بقلق، ثم سألتها باللغة التي لا تحتاج إلى قاموس أو إلى ترجمة، اللغة التي تفهمها جميع المخلوقات حتى وهي لا تزال جرثومة سابحة في العدم:

"ما هو اسمك؟"

ابتسمت لها الفتاة وردت بصوت كترنيمة ملاك حلم جميل ناعس:

"تالا"، سمعت بابا يناديني "تالا"

لم تفهم "عشتار" معني الاسم، ولم تهتم بذلك، بل قالت للطفلة مستفسرة مختبرة قدراتها:

"وأنا؟! أتعرفين من أكون؟!"

فردت الفتاة التي لا تزال جنين نصف حي ونصف ميت:

"أنتِ "عشتار"، "عشتار" المرأة الأولى، وأنا أحمل بذرة منك**!**"

سقطت كل أسلحة " عشتار" وصار من المحال عليها الآن أن تتخلص من الطفلة، أو أن تمسها بسوء، غمرتها أمومة قوية وقالت لها وكأنها تنشد صلاة:

"نعم إنني هي**!** سأكسوك بثوب الجمال وأجعلك فتنة ومسرة للناظرين، كوني أجمل فتاة، كوني البنت التي لا نظير لجمالها في العالم، كوني ربة الحسن وملكته، كوني "عشتارًا" صغيرة بلا شر ولا ندم**!**"

أغمضت الطفلة عينيها وبدأت ملامحها تتغير، تجعد جلدها ونبت على رأسها شعر أسود غزير، اتسعت فتحتا عيناها، وتشكل جفنيها في منظر جديد، وعلى خديها نبتت زهور حمراء صغيرة وفوق جسدها تناثرت بذور الورد مستعدة للتفتح ونشر الأريج**!**

ستكون الحسناء الباهرة الأولي في عصرها وبلدها، لكنها ستحمل من "عشتار" بذرة صغيرة وجزأ هينا من شيء أسود سيجعل حياتها جحيما إن هي لم تحسن التخلص منه سريعا، حين يبدأ في التحرك في أحشائها وقلبها**!**

(٦)

انخفضت درجات الحرارة في دمشق انخفاضا هائلا مفاجئا، وشعر الناس بالبرودة الممرضة تتسلل من النوافذ المفتوحة، ومن تحت أعقاب الأبواب؛ فسارعوا بإغلاق كل ما يستطيعون إغلاقه، وأشعلوا الدفايات وجلسوا أمامها يصطلون ويرتجفون فرقا، وهم يتذكرون ما حل بالغوطة منذ أيام قليلة، والتي لم تنتهي بها عمليات إنقاذ المحاصرين، وجرف الثلوج المتراكمة فوق هامات مبانيها والمكدسة في طرقاتها حتى الآن. خاف الجميع سوء المصير وجلسوا في حمي بيوتهم الدافئة ينتظرون، ولم يخيب النذير رجاءهم فسرعان ما أخذت كرات الثلج الأولي تتساقط أمام أعينهم!

هلل الأطفال الغافلون فرحا لكن الكبار شعروا بالذعر، أسرعوا بتدعيم أبوابهم ونوافذهم، ودفع المزيد من الحرارة إلي داخل بيوتهم وزيادة وسائل التدفئة. لكن فجأة توقف كل شيء وعادت درجات الحرارة إلى معدلاتها الطبيعية في ذلك الوقت من العام أو قريبا منها على الأقل، توقف تدفق البرودة المفاجئ أسعد الناس وإن لم يفهموا له سببا!

لكن الشيء الذي لم يكونوا يعرفونه أن " تموز " قرر أن يؤجل دمشق لجولة أخري، فقد لفت شيء آخر انتباهه وصرفه عن الاهتمام بمدينتهم مؤقتا!

***

قضي الشاب "حسن" يومين مختلفين حقا مع زوجته الحبيبة "رواء"، كانت في ظاهر الأمر مثلما أعتاد عليها دائما لكن تغيرا كبيرا حاق بها وجعله لا يكاد يتعرف عليها! بدأت تكون أكثر انعزالا وصمتا وبعدا عنه وبدأت تجفوه في فراشهما المشترك، وتتناءى عنه وتصد محاولات تقربه منها، بررت له أمه ذلك ـ حينما أشتكي لها ـ بالحمل ومتاعبه وبالقيء المستمر الذي تعانيه زوجته الحبلى، لكن "رواء" لم تقيء منذ يومين كما أنها لم تعد تأكل تقريبا!

كانت تعد له طعاما شهيا غريبا، لم تطبخه له من قبل، ولم تصنع مثله حتى حين كانت فتاة ناصحة أريبة في بيت أبيها، تحمل عبء البيت كله على عاتقها، لكنها لم تكن تشاركه فيه، بدأ جسدها يذبل وبدت مخايل المرض عليها لكن الغريب في الأمر أنها ازدادت قوة!

لمس يدها مرة وهو يحاول أن يساعدها في حمل دلو ماء يعجز رجلين مثله عن حمله مجتمعين، فأحس أنه يلمس يد دب قوي، وأزاحته هي جانبا وحملت الدلو بسهولة وبساطة ودونما مساعدة منه ولا من أحد آخر! دهش للتغير الذي أصابها، لكنه لم يكن يعرف أن زوجته ليست موجودة حقا أمامه، وأن جسدها مجرد غلالة تكسو وجودا آخر يحتل كيانها من الداخل!

كانت "عشتار" بالداخل يتنازعها أمران؛ فهي قد وقعت في غرام الشاب ـ زوج من تسكن جسدها ـ وتشتهي قربه، لكنها في نفس الوقت لا تريد أن تدنس وليدتها التي قررت أن تأخذها لنفسها! فالبنت (العشتارية) لا يجب أن يقترب رجل من أمها وهي تحملها، وحتى تضعها ثم تلوذ بها إلى مستقر آمن، لقد أصبحت الطفلة في الرحم طفلتها ولن تتركها لأحد! ستبقي في هذا الجسد حتى تولد الطفلة، ثم ستأخذها وتذهب بعد أن تكون قد اكتسبت مزيدا من القوة والقدرة على الحركة، لكن الحمل العزيز بدأ يهدده الخطر!

صحت ذات ليلة على ألم في أحشائها ووجدت نفسها ـ أو وجدت المرأة ـ تنزف قطرات من الدم؛ لم يكن الأمر مجرد خطر فقدان الجنين وحسب بل إن دمائها هي، التي أعطتها للطفلة، اختلطت بدم الأم وبدأت قطرات منه تنزف في نفس الوقت، الدم الأزرق الذي سيدل "تموز" و"حدد" نفسه على المكان الذي تختبئ فيه!

هرعت مذعورة توقف النزيف، وقد نجحت في ذلك بعد أن استعملت كل قواها القديمة، لكنها وجدت دمها الأزرق، قليل منه، وسط بقعة الدم الداكنة وشعرت بالذعر وبذراعي "تموز" القويتان الحانقتان تطوقانها!

ارتعشت وأصابها الشلل لنصف لحظة ثم سُري عنها بعد أن أدركت أنها تحلم فقط وتتخيل!

جاء "حسن" من خلفها ليطمئن عليها، كانت قد غادرت الحمام الخانق الصغير، بعد أن أوقفت تسرب الدماء وتقف الآن أمام نافذة صغيرة خفيضة مرتدية غلالة بيضاء، لم يرها زوجها ترتديها من قبل ولا يعرف من أين حصلت عليها. نظر إليها من ظهرها فتخيل أنه يري شيئا مختلفا وأن جسد زوجته يوجد أسفله جسد آخر شفاف يري بعض ملامحه في الضوء الهادئ القليل!

شعر بالرعب وفرك عينيه، ثم تقدم نحوها فأحست به واستدارت لتواجهه، هنا رأى تداخلا في ملامحها ولجزء من الثانية شاهد ملامح شاحبة آسرة رائعة الجمال تطفو فوق ملامح وجه زوجته المحببة إلى قلبه!

فرك عينيه للمرة الثانية بينما فهمت هي ما يجري، فاستردت قناع "رواء" المحكم فوق وجهها، وابتسمت إليه لتحاول أن تصلح ما أفسدته بظهور هيئتها الحقيقية بطريقة غير لطيفة أبدا!

كانت " عشتار" تزيد قوة تلك الأيام وصار بوسعها، لو أتيحت لها المزيد من فرص الهدوء، أن تتحرر قريبا وتبحث عن جسد آخر تسكنه، لكن ليس قبل أن تحصل على الطفلة!

***

كان وعي "تموز" قد أخترق بطريقة غير طبيعية، كان واقفًا مُعتليًا أعلى قبة دمشقية ومنصبًا تمامًا على إصابة المدينة بالشلل التام عبر صب جام غضبه المثلج عليها، لكنه تراجع فجأة وترك الأمور تسير في أعنتها الطبيعية لأن أمرا أكثر أهمية بمراحل أجتذب انتباهه! إنه "حدد"، لقد تمكن من شم رائحته وتمييزها جيدا!

كان "حدد" قريبا بما يكفي ليشم رائحته، ولكنه لم يستطع أن يراه حينما مسح الأفق بناظريه بحثا عنه، كيف يشم رائحته المميزة بذلك القرب ولا يتمكن من رؤيته؟!

كان "حدد" قريبًا بالفعل، بل على وجه الدقة فقد كان في نفس المكان الذي يقف فيه "تموز" الآن؛ لكنه كان لسوء الحظ بعيدا بحيث لا يمكنه أن يضم قبضته عليه ويمسك به! فقد كان الخصمين يقفان في نفس الموضع، لكن كلا منهما في زمن مغاير لزمن الآخر!

كان "حدد" الآن يقف في وسط معبده يتلقى القرابين وهو لا يدري أنه يقف بالضبط حيث وضع غريمه "تموز" قدميه في زمن لاحق بألوف الأعوام! لكنه قد أشتم رائحته، إنه في دمشق الآن، دمشق القديمة! لكن "حدد" يستطيع التنقل بين الأزمان بينما تلك الخاصية يفتقدها "تموز"، ولا يعرف عنها شيئا أصلا، فكيف بوسعه إذن الالتقاء بغريمه في مواجهة نهائية نظيفة! لا سبيل إلى ذلك إلا باستدراجه، لكن ما الذي يملكه "تموز" ويتحكم فيه ويمكنه بواسطته أن يستدرج خصمه العنيد الهارب ويدفعه لإظهار نفسه ومغادرة مكمنه الآمن في زمن آخر مؤمن بالكامل؟!

فكر "تموز" طويلا وقرر أن يعود إلى المعبد القديم الذي تلقي فوق سطح قربانه الأول، الذي لم يكن له في الحقيقة بل جاءه بالصدفة البحتة، وترك دمشق الوادعة لحالها الليلة ثم شيئا فشيئا بدأ يدرك ما عليه القيام به بالضبط!

***

أعتمت نجمة الصباح اليوم وقل رواءها وذلك لأنها بدأت تعاني الألم، إنه ألم ولادة رغم أن الحمل لم يتجاوز شهره الثالث بعد؟! بالنسبة للبشر الآخرين هذا هو سقوط للحمل أو إجهاض، لكنها تفهم ما الذي يجري معها بالضبط، لم يتحمل جسد "رواء"

الإنساني الضعيف وجود جسمين آخرين داخله فأنهار وتصدع، وأخذ يلفظ أضعف الوجودين وأقلهما وزنا؛ وهو وجود الطفلة في الرحم!

روع الزوج "حسن" لما ألم بجسد زوجته وحاول أخذها إلى المستشفى، لكن "عشتار" أبت بقوة وطلبت منه أن يتركها ويغرب عن وجهها؛ لقد كرهته الآن فهي تعتبر أن سقوط الطفلة ذنبه الخاص لا ذنبها!

طرحت نفسها أرضا في مكان مشجر معزول وهناك أخذت تحاول إنقاذ الطفلة، كانت البنت في الرحم ـ التي تحملت بدم عشتار ـ قد نضجت وصارت مستعدة لولادة طبيعية آمنة! أو ولادة آمنة لكنها غير طبيعية حتما، إنها ولادة عشتارية لم يشهد الكون مثلها منذ قرون!

كان "حسن" يتلصص من بعيد محاولا إخفاء نفسه عنها، لكنها بطبيعتها الثانية كان تشعر به، دعه يتلصص فلن يري شيئا يفهمه! لقد جلست القرفصاء كما تجلس النسوة اللائي يعانين الطلق، لم تكن تعاني ألم ولادة داخلها لكن جسد "رواء" هو الذي يعاني أوجاع الإجهاض، تدفق الدم غزيرًا، أحمر قانيا مخيفا مختلطا ببقع من دمها الأزرق السماوي الثمين الذي لا يجب أن يترك ليراق على الأرض دون سبب! وقد كان السبب يستحق إراقة الدم الأزرق الملكي، انزلقت الطفلة نظيفة تماما لأن أمها السماوية نقلتها إلى رحمها الاحتياطي ولفظتها من هناك،

خرجت الطفلة خلال دقائق! جميلة نظيفة تقرقر على الأرض وتضحك.

كل ذلك و"حسن" يرقب ما يجري بدون أن يفهم شيئا، وأخيرا عندما رأي زوجته تضع طفلة مكتملة تضحك فور خروجها من الرحم وهو الذي لم يمضي على زواجه بها، بـ "رواء"، إلا خمسة أشهر أصابته ضربة معنوية كادت تهشم رأسه مع ذلك، رأي الطفلة تضحك وتمد يديها فصرخ مرعوبا وأخذ يجري نحو القرية وهو يصيح بأعلى حس لديه طالبا النجدة والغوث!

نجت البنت من الموت المحتوم وطفت فوق يدي "عشتار" الباسمة التي كانت في أشد حالاتها سعادة، لما تستخدم جسدا قبيحا موهوبا وهي بإمكانها أن تبدأ دورة حياة جديدة في جسد جديد ملكها بالكامل!

أخيرا تحررت "رواء"، التي غادرتها "عشتار" ورحلت، وجدت نفسها تفيق فجأة في أرض غريبة معشوشبة وهي التي فقدت وعيها على قارعة الطريق! فأين الطريق إذن؟ وأين البقرة؟! ما الذي جاء بها إلى هنا وكيف تركها "حسن" بمفردها!

لكن الدم الذي وجدت نفسها مغطاة به أصابها بالذعر؛ مدت يديها غريزيا تتحسس بطنها لكنها وجدت هوة طرية غاصت يداها فيها في مقدمة بطنها! لقد فقدت حملها حتما، لكن أين هو زوجها؟ أين "حسن" ولما تركها بمفردها؟

لم تجد وقتا كافيا لتطرح ذلك السؤال على نفسها، فقد وجدت أحدهم فوق رأسها! رجل لكنه ليس زوجها المحبوب؛ بل هو شاب برونزي له عضلات هائلة وسمت ثور تحول إلى إنسان بلمسة عصا سحرية، إنه "تموز"! لقد رصد دم " عشتار" وهو ينزف، وجاء على الأثر ليقبض عليها! لكن "عشتار" كانت قد ذهبت، أخذت الطفلة وتحللت من الجسد الذي كانت تسكنه ورحلت إلى مكان مجهول!

والخبر السيئ أنها نزفت دمها القديم مع ولادة الطفلة وتحملت عروقها بدم جديد، لقد صارت "إنانا" الآن وخلعت ثوب "عشتار" القديم!

لقد فقد أثرها للمرة الثالثة وهو يتوق للانتقام، وليس أمامه سوي من استضافتها في جسدها ليصب انتقامه عليها؛ تقدم "تموز" نحو "رواء" المذعورة الملطخة بالدم، والواهنة بدرجة تمنعها من الجري والإفلات منه؛ تقدم منها بكل غضب وحنق مسعور، ورفع قدمه الغليظة المرتجفة غيظا مع بقية أوصاله وداس على رأسها، كادت رأسها تتهشم، وتوقفت أنفاسها تقريبا من فرط قوة ضغط قدمه؛ لكن النجدة العاجلة جاءتها، ليس من زوجها ولا من رجال القرية؛ بل من قوة غريبة قديمة أقلق سباتها اللعبة السخيفة التي تجري على الأرض!

كان "بعل" ـ كبير الآلهة ـ غاضبًا مما يفعله الصبية الثلاثة، وقد أحس بنذير الخطر يهدده ويهدد مملكته؛ لقد شكا إليه الربيع ما

فعله "تموز" به وهدد بفرض سلطان البرودة والظلمة على الأرض؛ أتي "بعل" نفسه ليضع حدا للأمر! وأبعد "تموز" في اللحظة المناسبة تماما عن "رواء" الخائفة المذعورة!

(٧)

كان "بعل" غاضبًا، غاضبًا جدًا وبحق؛ فأولئك الأولاد السفهاء المزعجون قد أرهقوا ثباته العميق وقادوه مرغما إلى الهبوط فوق الكرة الأرضية التي يكرهها من قلبه مثلما يكره الإزعاج بالضبط!

تطلعت " رواء " بفزع إلى هذا الكائن الجديد ـ الثاني ـ الذي أقتحم عالمها المجلل بالضباب والغموض ونظرت إليه بفزع. كان "بعل" في صورته الأولي ولم يجد وقتا كافيا ليغيرها، بالإضافة إلى أنه كان يفرك عينيه ويتثاءب! بشعر هائل مشعث فوق رأسه الصخري الضخم وقف ليحول بين "تموز" وبين الفتاة الأرضية المطروحة أرضا والتي ترتجف رعبا. صرخ في "تموز" بوحشية:

"صغار مزعجون، أقلقتم سبات من في السماء ومن في الأرض. ألا تستمعون بقليل من الهدوء عليكم اللعنة؟!"

رمقه "تموز" بغل، ولم يحر جوابًا للحظة ثم قال مغضبًا:

"إنهما خادماك المخلصان!"

كان لـ "بعل"، في الحقيقة، الكثير من الخدم المخلصين، فأي اثنين منهما عناهما "تموز" الغاضب بعضلاته المنتفشة المتضخمة؟!

"أي خادمين يا ولد؟!"

كان "بعل" يدعو تابعه "تموز" بالولد، بينما كانت "عشتار" بالنسبة له هي "فتاة"، أما "حدد" فقد كان يلقبه بالحية البغيضة!

"الخائنة وعشيقها، ألا تعرفهما يا كبيرنا؟!"

يبدو أن صفة "بعل" الوظيفية ككبير لأولئك الثلة من الحمقى أصبحت محل شك وسوء تقدير، لكنه ما زال كبيرة آلهة البلاد ولا ضير في إبداء القليل من الاحترام له:

"آه فهمت؛ أنت تطاردهما إذن؟! ولكن ما ذنب تلك المخلوقة الصغيرة القبيحة من فضلك؟!"

كان "بعل" يشير إلى "رواء" واصفا إياها بالقبيحة وكان هذا حري بأن يغضبها لكنها على كل حال لم تكن تفهم حرفا مما يفوهان به!

"إنها آخر من أوت الخائنة في جسدها؛ وعليها أن تدفع ثمن ذلك!"

صرخ فيه "بعل" وهو مازال غاضبًا:

" لا ذنب لها! لم تستأذنها عشيقتك السابقة اللعينة قبل أن تستحوذ على جسدها، بالإضافة إلى أنها سلبت منها طفلتها كذلك!"

أثبت "بعل" في النهاية أنه جدير بمنصبه، وعلى الأقل لديه بعض المعلومات الجديدة، اتسعت عينا " تموز" دهشة وقال بوحشية:

" طفلتها ؟! أحصلت الخائنة على جسد جديد؟"

كانت تلك كارثة بالنسبة للعاشق القديم المكلوم لكن "بعل" المنزعج قال باستهانة:

"وما في ذلك ؟! إنها تحصل على أجساد جديدة بصفة دائمة ولا أحد يستطيع منعها من ذلك!"

بالفعل لا أحد يستطيع منعها من ذلك. لكن ماذا عنك أنت أيها الكبير؟!

"وأنت؟!"

سأله "تموز" حانقًا فرد البعل مبطلا حجة الآخر:

"ولم أمنعها من مباشرة حقوقها كامرأة أولي موجودة منذ الأزل؟!"

بغضب أجاب "تموز":

"إنها خائنة!"

فقال "بعل" فورا وهو يضحك:

" كلهن كذلك! إنك لا تفهم الأمر على وجهه الصحيح!"

بازدراء سأله الثاني:

"أي وجه صحيح يا كبيرنا؟! يجب أن تعاقب لخيانتها!"

"إنها لم تخونك في الحقيقة فأنت الذي اخترت الموت لأجلها؛ هل ربطتها بوعد البتولية قبل أن تسلم رقبتك للجز من أجل عيونها؟!"

لا لم يفعل؛ لكن لما يسأله "بعل" ذلك السؤال؟!

"حسنا، لم تفعل! فهي لم تخطيء بحقك إذن، إنها سفاهتك التي أودت بك وليس خيانتها، إنها تمارس حقها في حب العالم!"

يا مجمع الآلهة! إن "بعل" يدافع عن خيانة أنثي، يدافع عن خيانة "عشتار" فأي هراء هذا؟!

ضحك البعل وهتف موضحا:

"لقد خُلقت هكذا ولا ذنب لها في ذلك؛ صنعتها من أديم معطر، وكسوتها جمالا ووضعت في قلبها حبا وشغفا وتشوقا لكل شيء جميل، علمتها أن ترشف الندي من أوراق الزهور، وأن تحفظ

جمالها من الموت والتحلل والتعفن، أنا صنعتها هكذا كما صنعتك وليس لك ولا لها أن تناقشوني وأن تطالبوني بكشف حساب، بأي حق ترميها بالخيانة؟!"

رد "تموز" والكراهية تفور في قلبه وتنضح من بين شفتيه:

"كانت تخونني معه وأنا لا أزال في مجدي حيا، مع "حدد" ساعدك الأيمن ذو البرق الخاطف والرعد القاصف!"

علق "بعل" مازحًا:

"يا لسجعكم السخيف الذي تعلمتموه من بني البشر! أنه ليس ساعدي الأيمن ولا أنت كذلك، إنني عن اليمين واليسار في غنى يا ولد!"

غضب "تموز" وتغير لونه، تحول ليرمق "رواء" الساقطة تحت الأقدام بحنق وكراهية وكأنما يري على مرآة ملامحها القبيحة انعكاس لملامح "عشتار" المختلفة كليا. إنه يروم الفتك بها، لأنها العائل الذي أستضاف روح الخائنة المنزوعة الهائمة، ولأنها غذتها بجسدها وآوتها في أعضائها، حتى لو كان ذلك رغما عنها، ولأنها في النهاية مخلوقة مؤنثة مثلها مثل "عشتار" ولذلك فهي تتحمل نصيبا لا يستهان به من أوزار الأخيرة وخطاياها! لكن هل يجرؤ على الإتيان بذلك في وجود كبيرهم "بعل" نفسه!

سرعان ما أتت نجدة جديدة لتوفر حماية إضافية للمرأة المسكينة المطروحة أرضا فوق دمائها النازفة؛ فقد عاد "حسن" مع ثلة

من رجال القرية! لم يذهب بعيدا فلم تطاوعه قدماه ولم يطاوعه قلبه؛ بل هرع ليحضر النجدة وجاء! جماعة قليلة من فلاحين يحملون عصيا قصيرة غليظة، ويعتقدون أن زوجة جارهم "حسن" الشابة تعرضت للاختطاف، لكنهم لا يعرفون من أختطف جسدها ولا من يحيطون بها الآن ولو عرفوا ما صدقوا!

كان "بعل" و"تموز" لا يزالا في الموقع، لكنهما لم يحبا أن يظهرا عيانا أمام ثلة من البشر الأغبياء المدججين بالعصي التي يحسبونها سلاحا ماضيا كافيا؛ فتبخر وجودهما وإن ظلا يرقبان ما يحدث بعين شغوفة متطلعة إلى معرفة ما سوف يجري!

جاء الزوج يتبعه الرجال ليجد زوجته في نفس الموضع حيث تركها، على وجهها غبرة والدماء تحيط بها فملأت الشفقة قلبه! لكن هل يسألها عما رأي؟ أسيصدقه أحد إن روي له أنه رأي زوجته تضع جنينا كاملا، بنتا مكتملة وهي حامل لثلاثة أشهر فحسب؟! وإن صدقه أحدهم فأين الدليل الذي يؤيد دعواه، أين البنت الوليدة؟! اختفت تماما وأختفي كل أثر لها، إنها برفقة "عشتار" الآن وما من أحد يعرف أين اختبأت الأخيرة أو خبأت البنت؟! ماذا سيكون مصير البنت الصغيرة؟

"تموز" لا يريد سوي الفتك بها وبمن حملتها وبمن أعطتها بذرتها، و"حدد" لا زال متواريا، وهو له نصيب معلوم من الوليدة باعتبار أنه يحوز على رأس "عشتار" السابق، و"بعل"

يري في كل ما يحدث لعبا وسخفا وهراء ويروم العودة إلي الدعة والنوم .. و"رواء"؟!

إنها لا تكاد تعرف شيئا عن الأمر، وكل ما تعتقده أنها سقطت وفقدت حملها بينما هي تقود البقرة إلى خارج القرية، ولا تعلم أنها غابت عن الوعي أياما طويلة حيث كان جسدها مسكونا من قبل أنثي أولى قديمة، خلقت في بداية الزمان، تحمل اسم "عشتار"، وتُري صورها على جدران المعابد وفي كتب التاريخ التي لا يتاح لها رؤيتها أو الاطلاع عليها! "حسن" والد الجزء الأرضي من الطفلة ويحق له، بمقتضي قوانين مجمع الآلهة المطالبة بالبنت.

لكن كل شيء الآن يدور حول "عشتار"! فأين هي "عشتار" وماذا تصنع الآن؟ الحقيقة إنها في آخر مكان يتخيلون أنها يمكن أن تكون فيه؛ فهي أمامهم مباشرة!

(٨)

في معبده كان "حدد" قابعا كفأرٍ مذعورٍ، رغم أنه ليس في متناول عدوه بأي صورة من الصور، إنه في زمان آخر لكن هل يستطيع "تموز" له شيئا!

إنه جبان رغم تظاهره بالطغيان والقوة المسيطرة، وأغلب انتصاراته حققها عن طريق المخاتلة والخداع والرضي بالأسلاب بعد أن يحقق غيره الانتصار، لكنه لا زال يشتاق إلى ذراعي عشيقته الجميلة التي لم تترك عاشقا لها إلا خانته وخدعته حتى هو. لما لا يستجمع شجاعته ويهبط إلي الزمان الثلجي المهيب، الذي فرض فيه "تموز" خوفه المتجمد على الغوطة الخصبة وما حولها، ويبحث عن " عشتار " ويحاول إنقاذها؟ لم يكن حتى اللحظة يعلم شيئا عن تدخل "بعل" الكبير المفاجئ!

أما "بعل" الحانق فقد قرر أن ينهي هذا الأمر بطريقته الخاصة، سيسمع الدعاوي كلها ويصدر الحكم الذي لا يستطيع أي منهم أن يجادل فيه أو يسوف في تنفيذه، ثم سيذهب لينام! هكذا ببساطة؟! نعم .. بمنتهي البساطة!

لكن أطراف الدعوي الثلاثة ليس موجود منهم سوي الفتي الغاضب "تموز"، وبرغم ذلك فهل يستطيع "حدد" أو "عشتار" أن يمتنعا عن تلبية نداء وأمر كبيرهم الذي علمهم السلطة وأعطاهم المجد والنفوذ ؟!

وجد "حدد" نفسه يُسحب خارجا ويطير للحظة .. ثم ألفى نفسه تحت قدمي "بعل" الغاضب المتكدر شخصيا! جز "تموز" على أسنانه بمجرد أن رآه ساقطا بالقرب من موضعه، وهم بأن يتحرك ليفتك به؛ لكن إصبع "بعل" الضخم كاد يفقأ عينه وهو يبعده محذرا:

"مكانك يا ولد، لا مزيد من الشجار على الأرض!"

صرخ "تموز" غير مبال بالعواقب:

"إنه هو الجبان الهارب، لن أتركه بعد ذلك!"

نهره كبيرهم بقوة وتغير منظره وأكتسب سمتا مخيفا بحق وقال له آمرا:

" دونك فلا تبرح مكانك، أنا الحكم بينكم الآن، سأقيم محكمتي وسأصدر الحكم الذي لا مناص لأحدكم من تنفيذه!"

نظر "تموز" إلي عدوه بغل مميت، ثم سأل سيده مستفهما بلهفة:

" لكن الخائنة ليست هنا، ولا نعرف مكانها الآن!"

ضحك "بعل" وقال وهو يستعرض قدراته الخارقة:

" إنها لم تذهب إلى أي مكان، إنها هنا لم تبرح مكانها!"

بهت "تموز"، وحتى "حدد" نفسه أصابته الدهشة العارمة. نهض من فوق الأرض متهيبا ووقف على الناحية الأخرى من بدن البعل الهائل خشية أن تطاله يدي عدوه الباطشتان. تشمم "بعل" الهواء ثم استطال ذراعاه صوب كومة من المخلفات والقش وبقايا جذور النبات على الطريق، وفرق النثار المتهاوي فظهرت "عشتار" تحته، وهي تحمل الطفلة بين ذراعيها وتضمها إلى صدرها في قوة؛ نظر إليها "تموز" في وحشية وهتف شامتا:

" هذا هو ما تستحقين تماما، تختبئين وسط القاذورات يا ابنة السماء!"

كان هذا أكثر الأمور إثارة للدهشة، لكن "بعل" قدم لهم التفسير في أقل عدد ممكن من الكلمات:

" إنها تعرف أن كلاكما لا تستطيعان تشمم ما خلف القمامة، لذلك أخفت نفسها في تلك الكومة حتى نذهب كلنا فتأخذ الفتاة وترحل!"

نظر إليها "حدد" شامتًا وربما لائمًا فبادرته وهي تنهض من فوق الأرض وتحكم يداها أكثر حول الطفلة الساكنة الهادئة:

"أين الرأس يا "حدد"؟"

راق لـ "حدد" أن يتظاهر بالغفلة وتساءل وكأنه جاد فعلا، ولا يعرف عما تتكلم عشيقته السابقة:

" أي رأس يا "إنانا"؟! "

كان يذكرها بأمومتها المفاجئة ويعيرها بها تقريبا، لكنها صرخت فيه متجاهلة "تموز" و"بعل" كليهما:

"أنت تعرف عما أتحدث، أين رأسي القديمة؟!"

كانت "عشتار" قد اكتسبت وجودا جديدا شفافا لامعا بالبرق بعد أن صارت أما، لكنها كانت لا تزال تحن إلى جسدها وجمالها البشري القديم، تدخل "بعل" منهيا تلك المجادلة السخيفة:

"سنحقق في موضوع الرأس كذلك، قضيتكم ستستغرق وقتا أيها العظماء، لكن اليوم لن يمضي قبل أن نفصل فيها بعدلنا المشهود!"

ندت ضحكة خفيفة من بين شفتي "حدد" فتحول "بعل" لينظر إليه وقد صار مرعبا بحق:

"أتستهزئ بكلامي أيها الأحمق؟! سيكون لك عقاب خاص وستحبس في قفص لتتعلم التأدب!"

هم "حدد" بالاعتراض، لكن كبيرهم أسكته فورا بنظرة مخيفة من عينيه الثاويتين تحت كومة هائلة من الشعر المتشعث الخشن، تحول الجميع إلى "عشتار" التي بدأت الطفلة تصرخ بين يديها!

كانت الطفلة جائعة فلم ترشف لبنا منذ أن غادرت الرحمين اللذين أوويت فيهما كليهما معا، لكن الصغيرة التي انزلقت من رحم "عشتار" صارت طفلة غير عادية؛ ولن ينفع معها اللبن البشري أو الحيواني العادي، إنها تحتاج أن ترضع من واحدة من مرضعات السماء السبع المقدسات، المكرسات لإرضاع بنات الآلهة، لكن من أين لـ "إنانا" بواحدة منهن؟

مد "بعل" يده وطلب من "عشتار" بحزم:

"أعطيني إياها! البنت المسكينة، لقد شققتيها نصفين، وستكون نصفين غير ملتصقين، لماذا لم تتركينها تحيا كطفلة بشرية عادية؟"

ضمت المرأة الأولي الطفلة إليها بقوة وهتفت مبدية استعدادا للدفاع عن طفلتها في وجه أي أحد:

"إنها لي الآن! إنها طفلتي، وسأبحث لها عن مرضعة مناسبة! "

ضحك "تموز" ساخرا، وقال مُبديًا دهشته لحنان الخائنة القديمة على طفلة ليست طفلتها في الأصل:

"حنان فائق أيتها الأم السماوية الأولي، لكن لما تسرقين طفلة من أمها؟"

بشراسة ردت عليه "عشتار" وهي تحكم قبضتيها على الطفلة، وكأنها تخشي أن ينتزعها أحد منها:

"إنها طفلتي ولا شأن لك، ليس لك طفلة مثلها**!**"

رد عليها "تموز" بحقد وقد لمعت عيناه بنظرة تنبئ عن شيء توصل إليه فجأة وأثلج صدره:

"يبدو أن الطفلة قد صارت قطعة منك حقا، ستكبر لتصير أنتِ أخرى**!** ملهم**!**"

كان "تموز" يستخدم كلمة (ملهم) كلما وقع على مفاجأة سارة؛ وقد أدركت غريمته ما يعنيه خلف كلماته القريبة الواضحة .. إنه يهددها بانتزاع الطفلة منها**!** طافت شراسة مخيفة فوق وجهها الشاحب اللامع وقالت له بقسوة:

"لو فكرت في لمس شعرة منها؛ فستجني ألما يفوق كل ما تتخيل**!**"

أوقفهما "بعل" عن الاسترسال في تلك المجادلة العقيمة ورفع ذراعيه آمرا:

"لنغادر الآن**!** فلنعد إلى مُستقرنا في السماء وهناك سنحاسب المخطئ ونعاقب الآثم**!**"

ظهرت علامات الخوف على وجوه الثلاثة فكلهم مهددين بالعقوبة إذن، وحاول "حدد" التملص من تلك الرفقة المجبر عليها:

"لا أبغي تحاكما ولا شجارا، لست إلا عابرا في تلك القضية!"

نهرته "عشتار" فورا بقسوة:

"جبان .. خائن ووغد وجبان حقير!"

فأكمل لها "تموز" فورا:

"مثلما كان طوال عمره، لكن متى أكتشف تلك المفاجأة السارة؟!"

تبادلا نظرة تحدي وكراهية، وأخذ "تموز" يركز نظراته على الطفلة الصارخة الباكية، زعق فيهم "بعل" الذي فقد أعصابه وبدأ صبره الطويل يتبخر فعلا:

"لا مكان للاختيار هنا، مأمورين أتبعوني وخلوا سبيل البشر التعساء، وأنت يا "تموز" ستدان بسبب ما فعلته في الغوطة!"

دهش العائد من الموت لكن "بعل" أجابه بحقد ظاهر:

"إنها أرضي المفضلة، وقد كنت أعُبد فيها أيها الأحمق المتسرع!"

لم ينتبه "تموز" لتلك النقطة من قبل، لكن أي أهمية لذلك؟

أختفي "بعل" متصاعدا نحو السماء، فتبادل الثلاثة نظرات حارقة كارهة وعبروا عن احتقارهم العميق لبعضهم بنظرات صغيرة خاطفة؛ تسامت "عشتار" حاملة طفلتها ولحقت بكبيرهم، وجاء من خلفها "حدد" الذي أقدم على حركة سخيفة؛ حاول أن يمسك يد "عشتار" لترافقه في عملية الصعود المرهقة، لكنها أبعدته بقسوة ونفرت في وجهه وتقدمته بسرعة خارقة، من خلفهم جاء "تموز" الذي بدا وكأنه لا هم له إلا أن يرمق الطفلة الصغيرة بنظراته ويكلؤها بحراسته الصامتة!

(٩)

تلك المحاكمة لن تنتهي على خير غالبا، هذا أمر معروف، لكن أي فائدة يجنيها المرء من الخوض في ذلك والقلق بشأن شيء لا يملك منعه أو إيقافه؟ كان الثلاثة في غمرة سطوة "بعل" الآن وتحت إمرته، وهم يعرفونه جيدا حينما يكون غاضبا، ويعرفون أكثر أنهم أخطئوا وأنهم يستحقون العقاب! كان "تموز" هو أول من سيتعرض للعقاب، فـ"بعل" يعتبر ما فعله في الغوطة عدوانا شخصيا عليه وعلى أرضه المفضلة.

حُبس في قفص ومعه "حدد"، بينما أبقيت "عشتار" خارجا حاملة وليدتها، نصف البشرية نصف السماوية! كانت "عشتار" قد قررت أن تطلق عليها اسما فريدا غريبا، لكنها وبعد أن فكرت قليلا قررت أن تنتقم من التهديد الذي خضعت له ذات يوم على يدي "حدد"، حينما أنذرها مهددا متشفيا بأن الآلهة ستخلق أنثي نظيرة لها وأكثر جمالا، وترفعها سيدة للحب والجمال وتخفضها هي، عشتار، في المقابل؛ لقد ذكر الخبيث اسما في ذلك اليوم لا زالت عشيقته السابقة وعدوته الحالية تذكره بغضب وكراهية، "براتي"! لقد قررت المرأة الأولي أن تسمي الطفلة، التي انتزعتها من رحم بشري قبيح، باسم "براتي"!

حصلت الطفلة على اسم إذن، وعلم البعل بما يدور في نفس الفتاة المشاغبة فقال وقد داهمته رغبة مفاجئة في الإجهاز على ما صنعت يداه:

"هذا خطأ يا "عشتار"، إنك تدخلين دما بشريا ملوثا في زمرتنا المقدسة، وتهددين ثبات عروشنا بفتاة وضيعة الأصل**!**"

ضمت "عشتار" الطفلة إليها وراقبتها مليا، قبل أن تفح في وجهها قائلة وثمة سحب رقيقة من النور تنساب من بين شفتيها وتغمر وجه الطفلة المكتمل:

"براتي، ليكن اسمك يا فتاتي .. "براتي" سيدة أنت وبين الآلهة موضعك**!**"

قطب "بعل" وعبس وجهه وقال للمرأة غاضبا:

"أتتحدين إرادتي؟**!** قلت لك إن هذا خطأ.."

كاد يكمل كلامه حينما فوجئ، هو نفسه، بمنظر مبهر، لقد صمتت الطفلة حين سمعت الاسم والكنية يلقيان عليها، ثم فجأة، بدأت الفتاة تكبر وتزيد حجما أمام أعين الجميع**!** ولأنها فتاة مميزة، نصفها سماوي ونصفها أرضي بشري، فقد خرقت كل عادة وأفسدت كل قانون، إنها تكبر للحظتها ولا تحتاج لمرضعة سماوية ولا لقطرات اللبن الزرقاء**!** لن تحتاج لشيء فجسدها المنقسم الفريد يصنع كل شيء بنفسه، ويستهلكه بنفسه أيضا، وفي نفس اللحظة**!**

صمت كلا من "تموز" و"حدد" وكفا عن النقار والتدافع في قفصهما المتين، وحتى البعل نفسه اعتراه الوجوم ولاذ بالصمت التام، مترقبا بقلق ما تسفر عنه عملية النمو الخارقة التي تحدث أمام عيونهم أجمعين، والتي لا يسمح لهم قانونهم المرعي بإيقافها!

كانت الطفلة قد صارت الآن مستوية على قدمين ثابتتين، ولا حاجة بها إلى ذراعين مترفقتين تضمانها، وضعتها "عشتار" على الأرض وأخذت تراقبها بسعادة وهي تواصل نموها الهادئ الصامت المخيف، خلال لحظات كانت في نفس حجم وشكل فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة!

انفتحت أعين "تموز" و"حدد" بشراهة على هذا الجمال المفرط الذي أخذ يتبدى وينكشف أمام أعينهما المُحملقة، كانت "براتي" اليافعة الآن أجمل وأكثر كمالا أنثويا وجسديا من أية امرأة أخري في السماء أو في الأرض! حتى "عشتار" في ذروة جمالها لم تكن لتدانيها، أو لتقارن بها.

انفرجت شفتا " تموز " أخيرا وهتف مبهورًا:

" "براتي"، ابنة السماء وسليلة الأرض، أيتها الرائعة!"

بدوره "حدد" شاركه انبهاره الوقتي وذهوله التام، بدأ "بعل" يدرك المشكلة الجديدة التي بدأت تتشكل هنا! إنهما سيتصارعان على ابنة "عشتار" الآن، بعد أن كانا يتصارعان على "عشتار"

نفسها، لذلك فمن الواجب أن ينهي القضية بأحكام رادعة ويفوت الفرصة على الجميع في الدخول في مزيد من الشجارات والمعارضات!

قضية سخيفة لكن الحكم جاهز، ومعد سلفا على أية حال، صارفا انتباهه عن "عشتار" و"براتي" تحول ذو السطوة إلى الولدين المشاغبين وهتف منهيا كل نقاش:

"تموز"، أنت قد أهلكت الزرع والضرع في الغوطة وفرشت عليها ثوبك الثلجي دون سلطة لك ولا حق لتفعل ذلك، ألف عام تحت الثلج وأسفل الركام البارد ستحيا! "

لمعت عينا "حدد" جزلا، بينما صرخ "تموز" محتجا غاضبا:

"لا، لا، أنا من تعرض للخيانة والغدر هنا."

قاطعه "بعل" وهو أكثر غضبا منه:

" لا تصرخ في حضرتي! سنري أمر الخيانة هذا بعد أن تنفذ عقوبتك، سأكون قد نمت قليلا حينها!"

ثم رمق "حدد" بشراسة وقال له:

"أما أنت أيها المرعد الممطر، فلك عقوبتين؛ إحداهما للجبن والهرب، والأخرى لتحدي سلطتي وعبور الأزمان دون إذني، أيها القط الجبان، ليلك جاف ونهارك يابس، وفي الجفاف مغلولا ستبقى ألفا عام!"

عقوبة أخري أشد قسوة، "عشتار" ومعها "براتي" تنظران وتنتظران، كانت "براتي" قد استوت مكتملة النمو الآن، وعقلها صار مؤهلا لفهم الحقائق التي تدور حولها؛ بجسد شابة لكن بأحاسيس طفلة انتزعوها لتوهم من حجر أمها، التصقت بأقرب الناس إليها، "عشتار"، وأخفت رأسها الجميل المجلل بتاج من الشعر الليلي الفاحم، الذي يسترسل حتى يصل إلى أعقاب قدميها، وأخذت تتنفس ببطء وخوف، ضمتها المرأة القديمة إليها وأحست بالحب الجارف نحوها!

ابتسم "بعل" بطريقة غامضة، وقال مخاطبا أنثاه المفضلة التي أتعبته وأتعبت الجميع خلفها:

"عزيزتي "عشتار"، من يوم أن جبلتك من ماء السماء وصغتك فتنة للرجال وأنا لم أهنأ بلحظة راحة، خلقتك لتسعدي الجميع فأشقيت نفسك وأشقيتهم معك، بودي أن أصل لقرار بشأنك؛ لكنك للأسف مخلوقتي المفضلة وليس من السهل أن أنزل بك عقابا قاسيا."

قاطعه "حدد" صارخا غاضبا:

"يا للمحاباة في مجلس الآلهة وفي محضر السماء! شيء كريه!"

ابتسم "تموز" فقد كان يعرف أن البعل لم ينهي كلامه بعد، وأن "حدد" سيزيد عقابه من أجل ما تفوه به من عيب في جناب البعل المقدس، وفعلا هتف البعل بهدوء:

"يا للحماقة أيها الشباب المندفع! ما الذي ستجنيه عندما أزيد عقوبتك ألف عام أخري؟ ها، إنك لن تجني شيئا حتما، ثلاثة آلاف عام هي فاهنأ واستمتع بوقتك!"

ضحك "تموز" شامتا، بينما عاد المسيطر على الجلسة يحادث عشتار لائما:

"لكنك يا فتاتي لن تفلتي من العقوبة حتما، وقد جهزت لك عقوبة مناسبة تماما!"

رمقته "عشتار" خائفة، بينما التصقت "براتي" بها أكثر، قال البعل متشفيا:

"إنك كنت زهرة الصباح ومطمح الرجال، سأنشر قبح الأرض على وجهك، وبمن شبهتي نفسك وسكنتِ جسدها ستتشبهين، وبالمرأة القبيحة التي انتزعتِ طفلة رحمها ستلحقين، وسوف تحل ابنتها محلك وتجلس في موضعك!"

شهقت "عشتار" شهقة هائلة، بينما ران الصمت على خصميها وعاشقيها السابقين، عقوبة ماحقة لم يصل إليها تفكير أحدهما ولم يتوقعاها مطلقا، لكن لما تبدو "عشتار" مصدومة لكنها ليست حزينة أو غاضبة! لغز يحير الخصمين؛ لكن "بعل" تفهم كل شيء! إنها ستحاول العودة، ومن خلال "براتي" ستحكم، فالحقيقة أن البنت قد أخذت نصف روح "عشتار" على الأقل،

لذا لم يتبق لها كثير لتحزن من أجل فقده! إنها "براتي" الآن وليست "عشتار"، المرأة الحاكمة!

أحنت "عشتار" رأسها ثم اختفت، تبخرت وضحكاتها ترن في المكان! ذهل الخصمان وصاحا منددين غير هيابين لحضرة كبيرهما ووجوده:

"أين ذهبت؟ حيلة لتبرئة ساحتها!"

بينما صرخ "تموز" بمفرده غاضبا حتى الاشتعال:

"سمحت لها بالهرب! يا للظلم والإجحاف! أين العدالة؟"

ثم قال "حدد" عارضا وجهة نظر أكثر سفالة ومباشرة:

"إنها خليلتك أيها الأكبر المرهوب، مثلما كانت معنا فهي معك أنت أيضا!"

ابتسم البعل أخيرا وهتف معلنا بلا خجل:

"الحق إنها مخلوقتي المفضلة، لماذا تظنان أنني أقلقت سباتي العميق؟ لم أكن لأدعكما تفتكان بها، إنها تُعاقب الآن والفتاة ستجلس على كرسيها، وأنتما تتلقيان عقابكما تحت الثلج وتحت التراب، وأنا أنعم بنوم هادئ ألفي طويل، أهناك عدل أو إنصاف أكثر من ذلك؟"

شعرت "براتي" بالسوء الذي يدور من حولها، وبغريزتها التي اكتسبتها في رحم "عشتار" الغاوية أحست بأن ثمة قوي أكبر موجودة هنا، يجب أن تلوذ بحماها وتلتصق بها، وبنفس تلك الغريزة وعلى ذلك ذهبت مباشرة إلى "بعل"، وجثت على قدميها مقدمة له احتراما، ذهل الخصمان ونظرا إليها بغل وحنق ممزوجان برغبة هائلة من كل منهما في الاستحواذ عليها!

نظر إليها البعل مغتبطا، وقال وهو يلامس شعرها الهائل الجميل:

"مثلما كانت أمك هكذا تكونين، ومن اصطرعوا عليها عليك سيتصارعون، فكوني أكثر حنكة ودهاء منها يا فتاة، أيا "براتي" الحسناء أجلسك في موضع أمك، وأتوجك بتاجها وأجعلك للنساء سيدة وللصباح كوكبا منيرا، وللشمس منافسة وللقمر سيدة، ولي أنا."

أظلم وجها "تموز" و"حدد"، وجاء الأزلام ليحملوهما بعيدا لينفذا عقوبتهما المقررة من لدن رئيس مجمع الثمانية والستين المقدس، حُملا بعيدا وهما يصرخان محتجين، لكن الخدم السرمديين أغلوهما وقيدوهما بسلاسل أعرض من ضفة الفرات ورفعوهما رفعا، وعُلقا في رهقة من الثلج والحصى، حتى يهبطوا بهما إلى العالم تحت الأرضي الواسع لينفذا ما حكم عليهما به البعل!

كان للبعل بقية كلام لكنه لم يكملها في حضرتهما، وأختفي الخصمان الشرسان برفقة الأزلام، بينما بقيت "براتي" جاثية بالقرب من قدمي بعل الذي مال على أذنها وهمس لها برقة:

"حصيفة وذكية، سرعان ما سيتلاشى جسدك القديم ولن يعرفك أحدهما، لكنهما سيعودان ذات يوم؛ لذلك أنصحك بأن تكفي عن الخيانة وتتوقفي عن التلاعب بالجميع!"

رفعت الفتاة عينان مجللتان بحاجبين رفيعين كقوسين من البرق وبوجه في جمال الشمس وحمية سورة القمر الفضية، رمقته للحظة، ثم ابتسمت له متفهمة، ومالت مقبلة يده!

- تمت -

الكاتبة في سطور

منال عبد الحميد

من مواليد يوليو ١٩٨١

مركز البلينا / محافظة سوهاج

مقيمة بمحافظة سوهاج

تعمل بوزارة التربية والتعليم

صدر لها:

مؤلفات فردية:

- "جنون شهرزاد ووردان" ج١ من سلسلة (الليالي الألف) دار الحكمة للنشر ٢٠١٣
- "جام جامشيد وخمست طيباوي" ج٢ من سلسلة (الليالي الألف) دار الحكمة للنشر ٢٠١٣
- رواية (الدفينة) دار الميدان ٢٠١٥
- رواية (ستيغماتا) دار غراب ٢٠١٥

- رواية السبي (ثلاثية على أنهار بابل) دار إبداع يناير ٢٠١٦
- مجموعة قصصية (تابوت العهد) دار غراب يناير٢٠١٦
- سلسلة الملاعين للجيب العدد الأول (جزار لندن) / دار إبداع سبتمبر ٢٠١٦
- سلسلة الملاعين للجيب العدد الثاني (الغولة) / دار إبداع سبتمبر ٢٠١٦
- (بتول: ماذا فعلوا بالشمس) رواية / دار حرف للنشر
- (الهامة) رواية قصيرة دار شهرزاد للنشر
- (حميم) مجموعة قصصية دار شهرزاد للنشر

تحت الطبع:

المتحولون (رواية من أدب الرعب) دار ملهمون للنشر / الإمارات

الجوائز:

المركز الأول في مسابقة نادي القصة بأسيوط (فرع القصة القصيرة) / دورة الأديبة دكتورة " هيام صالح " ٢٠١٦م

التعريف بـ Escatopia:

هي منصة ثقافية تسعى لتوفير محتوى عربي فريد، عن طريق ترجمة القصص العالمية، بالإضافة لمجموعة متنوعة من الروايات والقصص القصيرة والمقالات بأقلام مؤسسي المنصة أو المتابعين لها.

قامت المنصة بعقد مسابقة في القصة القصيرة بمناسبة مرور عام على تأسيسها، وشاركت فيها العديد من الأقلام الشابة المهتمة بأدب الفانتازيا والخيال العلمي، وسيصدر قريبًا كتاب ورقي بالأعمال الفائزة بالمسابقة.

الموقع الرسمي:

www.escatopia.com

